



خُلاصَة اليَوْمِيَّة وَالشُّدُورُ

عباس مدهد العفاد



منظمة
الطباعة والنشر والتوزيع



اسم الكتاب : الخلاصة اليومية والشذور

اسم المؤلف : عباس محمود العقاد

تاريخ النشر : ابريل ١٩٩٥

رقم الأيداع : ٤١٥٣ / ١٩٩٥

ترقيم اللؤلؤ : 3 - 0375 - 14 - 977 - I . S . B . N

الناشر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة ج . ٢٠ ع

تليفون : ٥٩٠٩٨٢٧ / ٥٩٠٨٨٩٥ / ٣٤٦٦٤٣٤ / ٣٤٧٢٨٦٤ / فاكس : ٥٩٠٣٣٩٥

ص . ب : ٩٦ الفجالة - ١٨ شارع كامل صديق القاهرة

مقدمة

يعرف قارئ العقاد أن كلام العقاد في أبسط الأمور وأهونها لا يقل شأنًا عن كلام العقاد في أعظم الأمور وأكبرها خطرًا ، فالعقاد هو العقاد في أبسط كتاباته وفي أكبرها شأنًا وذلك لأن العقاد عاهد نفسه منذ أمسك بالقلم أن يكون كاتبًا مفيدًا نافعًا وأن تكون حياته كلها التزامًا للقلم وخدمته ولرعاية قضاياها ، فالعقاد لا يلتزم في كتابته كما قد نقول في لغة هذه الأيام ولكنه يجعل حياته كلها إلتزامًا للقلم ورسالته .

لهذا لا نكاد نشرع في قراءة هذه الفصول الأولى التي وبجها قلمه والتي رعاها بفكره في أول عهده بالقلم حتى نحس بأننا إزاء فصول تعبر عن مكون فكره وجوهر مشاغله الفكرية والأدبية وحتى ندرك أبعاد روحه في تطلعها نحو اكتشاف الطريق الذي يليق بشخصه والذي يجدر به أن يتابعه وأن يحقق من ورائه مهمة الكاتب الحريص على كرامته وعلى أسلوبه .

ولا تملك بعد إستعراض فصوله الأولى إلا أن نعترف بأن العقاد لم يكن يتحسس طريقه وحسب في هذه الفصول وإنما كان يرسم معالم خط طويل من التفكير والجهد والتدبير والعناء فقد زج العقاد بنفسه منذ أول كلماته في خضم تيارات الفكر العالمية على نحو لم يسبق إليه مناقش مبادئ الفلسفة العويصة بأسلوبه المباشر الجميل وبعباراته العقلية الثمينة وتحدث عن جملة فلاسفة غربيين أبرزهم

شوبنهور ونيتشه وعالج موضوعات تمس الاشتراكية وتمس كيان المجتمع واللغة والأدب والشعر والفن وتحدث كثيرا عن الأساطير اليونانية وحاول أن يصل بين الفكر العربي والفكر الغربي بأسباب ووشائج. وحصن النشء على أن يغترفوا من مناهل العلوم الأوربية المستحدثة وأساليبها الثمينة .

ولم يأت ذلك كله عرضا في حياة العقاد لأنه توسم في نفسه منذ البداية أنه قادر على أن يخلق شيئا جديرا بإهتمام الأجيال كلها وأن يضع اللبنة الأولى في بناء فكر مدعم بالعقيدة وبالانحلاص وبالقدرة النافذة مما لم يعهده المجتمع من حوله فكان الكتاب الأسلوبيون يملكون الصحف والمجلات والكتب في ذلك الوقت بأبحاثهم الإنشائية البحتة وبمقالاتهم الأدبية الخالية من الإهتمام الجاد ومن التركيز الفعال السليم ويقضون كافة وقتهم في إنشاء العبارات إنشاءً وفي تحرير الأبواب على سنة القدماء فانبرى العقاد لهم يكره التقليد ويأنف من التعبير المرتجل وتستهو به العبارة الذهنية الهادفة ويحاول أن يبين الطريق أمام شباب الجيل بأثره ليجد من وراء كلماته النموذج الحقيقي لأسلوب الكاتب الذي يكره التقليد ويحارب التعبيرات المحفوظة وينأى بأسلوبه عن متابعة السلف وينفر من التكرار وتقصيع الجمل وترديد المترادفات وبطء التفكير ورتابة الفقرات ... يفعل العقاد ذلك كله من أجل ترسم خطى جديدة ومن أجل ابتعاث دماء شابة ومن أجل بث النضارة في الأفهام والعقول وفي الأقلام والكلمات .

ومن بداية الطريق يشعر القارئ بأن الكاتب نشأ ليعانى ويخلق
ليشق عباب تيار ضخّم وليحمل أعباء التبعات والمسئوليات فى التوجيه
والرأى فهو لا يكتب شأن غيره من كتاب ذلك الوقت ليرضى
الكلمات بعضها إلى جانب بعض وإنما لينفذ إلى العقول وليبنى خطة
المستقبل وهز المشاعر والقلوب .

ونحن إذا نقدم هذه الباقة من فكر العقاد وأدبه إلى جمهور القراء
فى اللغة العربية نهدف إلى إظهار بشائر فكرة فى أول عهده بالكتابة
حتى يتبينوا الجذور والبراعم الأولى التى أينعت فوق قلم العقاد وحتى
يعرفوا أين وجد العقاد بداياته وأولى خطاه وسنعمل دائبين على إظهار
كل مؤلفات العقاد التى لم يعد يعرفها القارئ بأن الكاتب نشأ ليعانى
ويخلق ليشق عباب تيار ضخّم وليحمل أعباء التبعات والمسئوليات
فى التوجيه والرأى فهو لا يكتب شأن غيره من كتاب ذلك الوقت
ليرضى الكلمات بعضها إلى جانب بعض وإنما لينفذ إلى العقول وليبنى
خطة المستقبل وهز المشاعر والقلوب .

ونحن إذا نقدم هذه الباقة من فكر العقاد وأدبه إلى جمهور القراء
فى اللغة العربية نهدف إلى إظهار بشائر فكرة فى أول عهده بالكتابة
حتى يتبينوا الجذور والبراعم الأولى التى أينعت فوق قلم العقاد وحتى
يعرفوا أين وجد العقاد بداياته وأولى خطاه وسنعمل دائبين على إظهار
كل مؤلفات العقاد التى لم يعد يعرفها القارئ الحديث خدمة لفكره
وحرصًا على أن تم صورة العقاد فى أذهان محبيه من أول عهده بالقلم
إلى آخر حياته .

محمود أحمد العقاد

خلاصة اليومية

كلمة

«من أراد أن يقرأ عن الناس»
«والعالم مايسره فيخلق للكتاب»
«ناساً جددًا في عالم جديد»

تدور هذه النبذة على نقط ثلاث :

أولا : أن كل ظواهر هذا الكون ، علويها وسفليها ، ظاهرها وباطنها نتيجة تفاعل «القوى» المختلفة . وكذلك الأمر في الاجتماع البشرى .

ثانيا : إن اللذة والألم . وبعبارة أعم . المنفعة والضرر هما الدعامتان اللتان عليهما تقوم كافة الأخرق البشرية .

ثالثا : إن الإنسان حيوان راق ولكنه لا يزال حيوانًا . فمن كان فخوراً بعالمه شديد الاعتداد بإنسانيته فهي لا تروقه وربما نفر منها طبعه . ومن كان يقرأ ليقتنع أكثر مما يقرأ ليرضى فأياه عنيت بنشر هذه اليوميات ؟

عباس محمود العقاد

الجامعة الإنسانية :

إن انفراد كل صقع بخصوصية تميزه عن سواه وتقدم الناس إلى الاشتراك جميعًا في الحاجة إلى تلك الخصوصيات بنسبة اتساع مطالبهم تبعًا لتقدم العمران مما يدل على أن كل الناس مرتبطون بكل الأرض وأن حواجز الأوطان ستطمس معالمها لتصبح الأرض الوطن العام لنوع الإنسان .

وهذه الحركة الاقتصادية التي جاذبت بين أبعد الشعوب لتبادل المنفعة ستؤدي حتمًا إلى توحيد المصالح العامة بين الأمم بحيث تتضامن كلها في الانفعال بالعوامل الاقتصادية التي تؤثر على بعضها وهو ما يؤذن بانقضاء الحروب وسيادة السكينة والسلام .

وما زالت العوامل الاجتماعية منذ القدم تقذف بالإنسان في دائرة أشبه بزرد الماء يتسع محيطها شيئًا فشيئًا فيشمل في كل دور ما كان خارجًا عنه في الدور الذي تقدمه ، فإن تكون القبيلة من العائلة والشعب من القبيلة والأمة من الشعب والجامعة من الأمة يؤذن بأن الخطوة التالية ستتقدم بنا إلى الغاية التي طالما اشتغل كبار المصلحين لتحقيقها . وهي دخول أم الأرض جمعاء تحت لواء جامعة واحدة . وهي الجامعة الإنسانية .

الفضيلة الرذيلة :

الفضيلة والرذيلة كلمتان لما اصطلح جماعات الناس على الاعتراف به أو انكاره باعتبار نفعه أو ضرره . والمعروف والمنكر وهما من

- ٨ -

مرادفاتهما في العربية تؤديان هذا المعنى تمام الأداء . فما كان يعد فضيلة عند قوم يعد رذيلة عند قوم آخرين تبعًا لما ينجم عنه من النفع أو الضرر عند كل منهما . وربما العمل الواحد في الأمة الواحدة يعتبر فضيلة في هذا الزمن أو ذاك ورذيلة في زمن آخر .

انحطاط الشرق :

علة انحطاط الشرقين انهم جعلوا لتنازع البقاء ميدانين فلم يبالوا أن يخسروا الصفقة في هذا العالم ليغنموها في العالم الآخر . وساعدهم على ترك الاشتغال بشئون هذا العالم أن خصب الطبيعة في الشرق قد جعل طلب الضرورات المعيشية ممالا يلجى إلى التدافع والزحام كما هي الحالة في الاصقاع التي لا يأتي فيها استثمار الرزق وتوفير أسباب الحياة إلا بوسائل الكد والاستنباط . فكانت الدعة والرخاء من أكبر العوامل التي صرفتهم عن عالمهم إلى تطلب السعادة الكمالية في سواه .

جنون النبوغ :

إذا كان الجنون بنوع ما عبارة عن مخالفة ما جرى عليه العرف بين الناس فالنبوغ نوع من الجنون . فان النابغة يستهين بالتقاليد المرعية بين الجمهور لأنه لا يعرف وجهًا للتمسك بها إما لأنها عقيمة في ذاتها أو لأنها كانت صالحة أو ضرورية في زمن عن الأزمان ثم عادت غير ضرورية في الوقت الحاضر .

التشبيه الشعري :

ملكة التشبيه تقوى حيث تضيق دائرة الأشياء فإن المتكلم يحاول أن يقرب إلى سامعه مالا يعرفه وهو كثير بتشبيه بشيء مما يعرفه وهو قليل . ومن ثم كان أهل البدو والريف أقدر على التشبيه من الحضريين وسكان الأمصار . ولقد كان الشاعر دائماً أسبق من العالم في التاريخ فإن الإنسان يحس أولاً ثم يفتكر . فتسخو القرائح في عهد البداوة وينبغ الشعراء في الأنحاء التي لم يستبحر فيها العمران أكثر مما ينبغون في غيرها .

إرادة المصرى :

المصريون لم يشعروا بافتقارهم إلى الإرادة إلا بعد أن قسرتهم المزاحمة الأجنبية على الأعمال التي للإرادة دخل فيها . فأما قبل ذلك فكانت أعمالهم من أغنى الأعمال عنها . فلا اعتدال الجو ولا ارتفاع النيل ولا امتناع الآفات ولا جودة المحصول مما يترتب على توجيه إرادة الزارع . بل كل ما يحتاج إليه في صناعته شغل آلى شاق بعيد عن إشراف القوى العقلية .

بقايا الحيوانية في الإنسان :

العواطف عبارة عن انفعالات جسدانية لا سلطان لأعمال العقل عليها . وهى فى الإنسان راجعة إلى أقدم عهده بالهمجية بل بالحيوانية الأولى أيام كانت كل أمياله وأطواره أفعالاً تقوم بها وظائف جسده من تلقاء نفسها حسب مطالبها من سد جوعه أو قضاء شهوة أو رى ظمأً أو دفع أذى . فالرجل الهجمى ومثله الجاهل الفطرى ليست

مدركته إلا مجموعة إحساسات عالية أو خسيصة ليس للنظر والتروى مجال بينها . وما كان فى جميع حالاته إلا آلة تقذف بها طبيعته حيث شاءت . ولكنه فى المجتمعات الراقية حيث يرتبط الرجل مع بقية الأفراد بواجبات وأصول جبرية ولا يعود حيواناً مرسلاً مع أهوائه وشهوته ، يضطر بحكم البيئة إلى الضغط على عواطفه انصياعاً لأحكام المصلحة والعقل ويزداد كلما ازداد الإنسان حاجة إلى التعقل والاستغناء عن قوة الساعد فى حفظ ذاته .

فالقليل الذى بقى من عواطفنا وأميلنا اللدنية التى لا تجيبنا إذا سألناها لماذا ، مصيره إلى التوارى والاختفاء حتى يسود حكم العقل على جميع أعمال الإنسان .

العمل والأمل :

الغرى والشرق يتشابهان فى أن لكل منهما غرضاً من حياته ولكنها يتفاوتان فى التوفيق بين الأمل والقدرة على تحقيقه . فالغرى إذا طمح إلى أمر عمد إليه من طريقه فالجندى يحاول أن يكون قائداً والمدروز تاجراً والصانع صاحب معمل وهلم جرا . أما الشرق فأمله مبهم غامض لا تتميز له وسيلة ولا تتضح إليه سبيل . يجب كل إنسان أن يكون أحسن إنسان كما لو كان يجب ذلك لإنسان سواه . أى من غير أن يأخذ للأمر اهتبه أو يدبر له عدته . فكثراً فى أقاليمنا ذكر أمثال فص شببك لبيك وبساط الريح وطاقية الإخفاء وقضيب السحر ومسحوق الكيمياء وغيرها مما يرد فى ألف ليلة والأحاجى التى يقصها عجائزنا على أسماع صغارنا قبل أن تفتح لهم أبواب

الآمال ، فينشأون على التراخي والتوكل وترك تحقيق أمانتهم إلى الصدفة والاتفاق .

الفيلسوف :

- ليس الفيلسوف صاحب المذهب الشاذ أو المبدأ الغريب ولا هو بالرجل الواسع الاطلاع أو المتفوق على غيره في ملكاته ومواهبه . الفيلسوف الحقيقي هو الباحث الذي لا ينشد إلا الحقيقة . ينشدها لا ليراها في شكل منتظر أو هيئة مرموقة أو ينظر إليها في ظل مبدأ من المبادئ فيكفيها كما ترسم مخيلته وتوحى إليه موروثاته ومعتقداته وأغراضه . ولكن لتظهر أمامه كما هي بالوجه الذي تظهر به في كل آن . عارية عن غواشي البراقش والزركشات ، وهو المفكر الذي لا يتسلط عليه رأى من الآراء أو يملك ذهنه غرض من الأغراض بل يأخذ في البحث سواء لديه على أى نتيجة طلع منه . فليس فيلسوفاً ذلك الباحث الذي يقدم على موضوعه برأى مبدئياً يتشيع إليه فيما هو بصدده أو ذلك السفسطائي الذي لاهم له من أبحاثه إلا أن يجد له برهاناً يسند إليه ماتلقاه من غيره عن طريق الوراثة أو التلقين .

الحساد :

ليس الحاسد هو الذي يطمع أن يساويك بأن يرقى إليك . بل هو الذي يريد أن تساويه بأن تنزل إليه . ومن هذا القبيل الرجل العياب الذي يتبع عورات الناس وسقطاتهم لينزل بهم إلى مستواه ويتغافل عن حسناتهم عمداً لأنه يعلم من نفسه العجز عن الإتيان بمثلها .

المطالعة والتجارب :

التجارب لا تقرأ في الكتب ولكن الكتب تساعد على الانتفاع بالتجارب .

الشعر والألفاظ :

الشعر صناعة توليد العواطف بواسطة الكلام . والشاعر هو كل عارف بأساليب توليدها بهذه الوساطة ، يستخدم الألفاظ والقوالب والاستعارات التي تبعث توتراً في نفس القارئ ما يقوم بخاطره أى الشاعر - من الصور الذهنية . والألفاظ نوع من اختزال المعاني تشير إلى ما لا يمكن وروده منها على اللسان أو هي رموز يقترن كل منها بخواطر وملايسات تتيقظ في الذهن متى طرقه ذلك اللفظ ولا يشترك في المدلول تمامًا . والكلمة في لغة لا تفيد معنى مقابلتها في لغة أخرى . فليست المعاني منطوية في احرف كلماتها ولكنها ترمز إليها ولا مجرد النطق بكلمة يكفي لاستحضار معناها عند كل من يسمعها على السواء . فتختلف الكلمة الواحدة في قوة استحضار المعنى باختلاف مدلولاتها وملايساتها عن السامعين والتفطن إلى هذا الفرق الدقيق بين معاني الألفاظ والتلطف في أداء كل منها في موضعه يدخلان في الملكة التي يحتاجها الشاعر ليكون شاعراً مجيداً ولا بد لها من أن يكون للشاعر استعداد فطري لتلقى العوارض والمؤثرات التي تقع تحت شواعره حتى يلم بأسرار النفس وكيفية تطرق الاحساسات المختلفة إليها . وأن يكون قد انطبع في ذهنه نخبة من صور تلك الاحساسات ممثلة في قوالب جماعة من فحول الشعراء ليعلم

بالمقارنة بينها أيها أحكم تمثيلاً وأبلغ وقعاً وأسرع توجهاً إلى العاطفة المخاطبة به حتى يتسنى له أن ينقل ما يشاء منها إلى نفس غيره . ولا يحتاج الأمر في الشعر إلى الجلاء والإبانة كما هو في النثر فإنه كما تقدم يقصد به التأثير ولا يقصد به الاقناع . والعواطف قد تتأثر بالعبارة المفاجئة أشد من تأثرها العبارة ذات القضايا المرتبة والمعاني الجليلة . فقل أن ترى كبار الشعراء يتكلفون الشرح والتفصيل فيما يريدون الأعراب عنه كما يتكلفهما المبتدئون منهم لأنهم أخبر بوسائل التأثير واعرف بالألفاظ التي لها وقع أبلغ من غيرها على الاحساس .

حب الظهور:

الشغف باستلفات الأنظار بشكل عام بين جميع الناس ولكن منهم قوماً يظهر كأنهم يطلبونه بألستهم وقوماً كأنهم يحرزونه بالرغم منهم ومن الناس .

التعصب الديني في المستقبل :

طبيعة الدين ليست عدائية وإن ظهر لأول وهلة كأن في هذا القول شيئاً من المخالفة للواقع .

حفظ الذات أقوى غرائز النفس الإنسانية . والعواطف المتفرعة عنه أقوى العواطف . تحرك الإنسان المؤثرات أولاً تحركه بقدر ما تمس هذه الغريزة . والإنسان بطبيعته في حالة سلم مع بقية الناس ، فالنزاع عارض طراً من اشتراك إنسانين فأكثر في الحاجة إلى العروض الخارجية ، وأن مجرد وجود تلك العروض بحالة لا يظفر بها الأمر

غلب ، بين فريقين متساويين في الحاجة إليها وعدم الاستغناء عنها ، يحسب في ذاته إعلانا من كل منهما صريحا باشهار الحرب إلى أن يظفر أحدهما بحاجته .

فالدين باعتباره عقيدة مجردة لا يقتضى نزاعًا بين الناس . إلا إذا تجاوز حيز العقائد إلى الأشياء الخارجية التي تدخل في معاملات الإنسان . كما يشاهد في الأمم المتأخرة التي تجهل العلاقة الحقيقية بين الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات . وأكثر ما يشاهد ذلك في أمم القرون الوسطى وما تقدمها من عصور الكهانة والسحر .

فقد مر عهد ليس بالبعيد كانت الصلة بين العاطفة الدينية وغريزة حفظ الذات من أحكم الصلوات . لا بالنظر إلى مستقبل الإنسان في العالم الآخر فقط بل بالنظر إلى حياتنا في هذا العالم أيضًا . فكان فرعون وشعبه يشربون دمًا أحمر من نيلنا العذب لأنهم لم يشأوا أن يدخلوا في دين بنى إسرائيل .

كان كل شيء في ذلك العهد إنما يحدث بإشراف القوى الخفية مباشرة . فكان للسحاب عمال يسوقونه من بلد إلى بلد ، وللرياح والبحار خزنة يصرفونها بتقدير ويمسكونها بتقدير ، وكانت العوارض السماوية من كسوف ونخسوف وهالات ومذنبات ورجوم ترصد من الأرض تارة كأنها إنذار السخط وتارة كأنها علامة الرضى ، وكانت الطواعين والأوبئة والمجاعات والصواعق والزلازل والطوفانات وغيرها من الجوائح الطبيعية تفسر كأنها نقمة الله حاقت الجنس البشرى عقابًا له على طغيانه وعصيانه . أما استنزال هذه البلايا -

فمع كونه كان مترتباً على مخالفة الإرادة الالهية - فإنه من حق طائفة اصطفاه الله من بين خلقه واختصها بعلم ما يرضيه وما يسخطه فلا ترد لها كلمة عنده ففي ذلك العهد الحافل بكل هذه الجهالات ما كان من الغريب أن يندفع الناس إلى الشقاق بسبب الدين ، بل في الحقيقة بسبب كل شيء ومن أجل كل شيء يمكن أن يكون باعثاً على الشقاق . لأن هذا كان معنى الدين في تلك العصور .

الحروب الصليبية :

ويظهر في مبدأ الأمر كأن العقل الإنساني استتر وكأن الضمير العام تنحى عن عمله ردحاً من الزمن ثارت في اثنائه الحروب الصليبية بكل غرائبها التي اغرب ما فيها أن يمر بها الإنسان قرناً ولا يدرك مقدار فظاعتها وشناعتها .

والعقل الإنساني لم يستتر ولا تخدر بل كان على أتم ما يكون عليه عقل المجاميع في مثل تلك الأيام . فكان الصليبيون يعاودون الكرة في كل حملة بعزم متجدد وأسف على فوات الفرصة منهم في الحملة التي تقدمتها لا شائبة فيه للندم . فلم تكن تلك الحروب ثورات حنق أو اندفاعات حماسة دينية وإنما هي حروب أصولية لم يفتها شيء مما يسبق حروب اليوم من التدبير وأعمال الروية في جوهرية الأسباب وقيمتها من الأهمية . ونحن نغالي في تزكية أنفسنا إذا ظننا أننا تصنع غير ما صنعوا لو أننا كنا موضعهم محاطين بمثل الظروف التي كانوا محاطين بها .

فهذا العالم الذي نراه أمامنا كان في نظر آبائنا عالمًا مسحورًا

الباطن فيه أكثر من الظاهر . فكان مقسومًا إلى منطقتين . استولى الله على أحدهما وتنازل للشيطان عن الأخرى . والناس مختلفون في رقم خريطته فما كان عند هذا الفريق من منطقة الله يعده الفريق الآخر من منطقة الشيطان .

فالصليبيون أغاروا على المشرق ليستخلصوا علم الله المقدس من حوزة أعدائه . ولو سكتوا عنه لما كانوا أهلاً لأن يختارهم الله ويجعلهم شعبة ، ولا يرضون ذلك لأنفسهم إلا إذا رضوا لها أن يجردوها من كل صفات النخوة والشهامة وهي كل ذخر الرجل وفخره في ذلك الزمان .

ومع ذلك فالخيار بين الرضاء بهذه المسبة وبين فظائع الحروب الصليبية لم يكن بالأمر العسير لولا خشية العقاب . فإى بلاء وأى شقاء لا ينزله الله بهذا الذى ينفذ من حول علمه ويتركه لأعدائه ؟؟ أن أحباط المسعى واحمال الزرع وتفشى الوباء أقل ما يتوقع من الجزاء على هذا النكوص المعيب !

وقد كانت العداوات تستقر وتهدأ بعد الوقائع الأولى لولا أن انقسم العدوان المتقاتلان بطبيعة الاقليم إلى شطرين - شرق وغرب متقدم ومتأخر . ضعيف وقوى . طامع ومطموع فيه . شطرين بطبيعة موقعهما لا يمكن إلا أن يتجدد العداء بينهما كلما عرضت أسباب الخلاف . وهي كثيرة لا تخلو منها معاملة من معاملتهما المتبادلة .

التعصب في العصر الحاضر :

هل يخشى أن تعود الإنسانية إلى مثل هذه المواقف في الأجيال المستقبلية ؟؟ .

كلا ! فالدين قد نصلت صبغته عن العروض الخارجية . تقدمت العلوم الطبيعية فعرف الإنسان علل الأشياء وكيف ولماذا تحدث وابقن أنها لا تحدث من أجله ولا من أجل عمله . لم يعد رجال الدين وكلاء اشغال الله على الأرض يبيعون الرحمة والرزق لعباده بالمال ، وفي وكالاتهم وحوانيتهم التي يسمونها المساجد والكنائس . ولكنهم انقلبوا رجالا كبقية الرجال ليس فيهم من السر إلا ما في كل إنسان . عرف الإنسان من أين تأتيه المنفعة ومن أين تأتيه الخسارة وأدرك أن تلك الطائفة لا يد لها على هذه ولا على تلك . وأنه لا يحق له أن تبحث عن السبب في كلتيها إلا في عنايته أو تقصيره فيما هو آخذ فيه . عرف أيضًا أن الأديان لا تجعل الإنسان نجسًا بطبيعته ولا طاهرًا بطبيعته فهو لا يطلب من الإنسان كيفما كان معتقده الديني إلا ما تقتضيه إنسانيته وهي لا تستلزم أن يكون مسلمًا أو مسيحيًا أو يهوديًا ولكن كل ما تستلزمه أن يكون عضوًا عاملاً في بنية الهيئة الاجتماعية . وبعد ان كان كله في قبضة ما وراء المادة أصبح للمادة كله . وارتدت الدينيات من العقل إلى زاوية ضيقة بعيدة عن مشاغل الحياة وعلائق الإنسان بالإنسان ، ومن الأرض إلى بقاع مقصورة على المعابد والمساجد والبيع . وهكذا كلما انحسر الدين عن بقعة عادت مجال وفاق ووثام بعد أن كانت ميدان نضال وخصام .

تقليد النساء :

النساء أسرع تقليدًا لانهن أشد غيرة . وهن أشد غيرة لان المشاكلة بينهن في المناقب والمفاخر أقرب مما هي بين الرجال .

دلالة القصص على درجة الأفكار في الأمم :

من العلامات على انحطاط الفكر ولوعه بالإغراق والاغراب فإن ذلك ليس معناه في الحقيقة إلا الجهل بحقائق الأمور . ولذلك يعتمد القصاص والرحالون في الشعوب المتأخرة إلى تجسيم الحوادث والمبالغة في وصف أبطالهم والتهويل في الأخطار التي يفتنون منها وتكبير المغامرات التي يصادفونها على غير انتظار والمشقات التي يلاقونها في السياحات والأسفار لعلمهم أنهم لا يتمكنون من استفزاز استغراب قرائهم بغير ذلك . فيتوهم القارئ وهو يتصفح إحدى تلك الاقاصيص أن صاحبها يتكلم عن أناس من غير هؤلاء الناس وأنهم يقطنون بلادًا ليست كهذه البلاد بخلاف قصص العصريين فإنها لا تتضمن الا وقائع يكاد يشاهدها كل إنسان في البيوت وعلى قوارع الطرقات . وعلى هذا القياس مبالغات الشعراء والمؤرخين فانها تقل بقدر انتشار المعارف في الأمة وتقدم ابنائها في الوقوف على الحقائق والاهتمام بالجواهر دون الأعراض .

أخلاق الفرد والجماعة

الخلال الشخصية المستحبة لا يمكن أن تستمد أصولها من مصدر أشرف من كونها صالحة لحفظ الحياة . وكذلك الأخلاق الاجتماعية

فإنها لا ترد إلى أكبر من كونها لازمة لصيانة كيان الجمعيات البشرية .
والجماهير تقدم رجل العموميات وأن كانت تنفصه الخلال الشخصية
على رجل الخصوصيات وأن كان مستكملا من هذه الوجهة لأنها
تستفيد من الأول بأكثر مما تستفيد من الثاني .

الجماعات والأغنام

طالما تذكرت أغنام السودان وأنا أقرأ نظرية جوستاف لوبون في
كتابه روح الاجتماع : «أن الجماعات أسلس قيادًا من الأفراد» فإن
قيادة شاة واحدة من تلك الاغنام عمل شاق يعى به اشداء الرجال
مع أن سوق قطيع كبير منها لا يحتاج إلى أكثر من ثلاثة أطفال
صغار .

جوفة العالم

العالم بأسره يشترك في تمثيل رواية مضحكة وادعى مناظرها إلى
الضحك أنهم لا يضحكون من أنفسهم وهم يمثلون كأنهم جادون
فيما يعملون .

المضحكات

المضحكات ليست بالقليلة ولكن الذين يحسنون صناعة الضحك
هم القليلون . فليس من الضروري أن نفتش عن رجل من أمثال
أبطال مولير لغرب في الضحك . فإن في كل رجل من الذين نراهم
ونعاشرهم موطنًا للنقص وفي كل عمل موضعًا للكلفة والتصنع -
والوادة الناعم البال ولو كان مغموراً بالشقاء ، ذلك الرجل الذي

يعرف كيف يفتن إلى مواطن الغرور والرياء من أعمال الإنسان فإنه لا يطبق فمه مادام يفتح عينيه .

الجمال والجلال

النفس الإنسانية يتنازعها عاملان قويان هما حب الحياة والخوف من الموت وبهذين العاملين يتعلق الشعور بالجميل والجليل . فالجميل كل ما حجب الحياة إلى النفس وأظهرها لها في المظهر الذى ييسر الرجاء فيها ويبعث على الإغتراب بها . والجليل كل ما حرك فيها الوحشة وحجب عنها رونق الحياة . فالربيع والصبح والنور والصحة والشباب والحركة والمناظر الرائقة والخضرة والأبنية المزخرفة . كلها جميلة لأنها تنعش الحواس وتذكرها بالحياة . والشتاء والليل والظلمة والمرض والمهرم والسكون والقفار الخيفة والأطلال الدارسة والصروخ القوية المتينة التى تنبئ بتعاقب السكان عليها والمعابد والهياكل والقوى الطبيعية الهائلة . كلها جليلة لأنها تقبض الحواس وتميل بالنفس إلى التضاؤل والضعف أمام رهبة الفناء وعظمة الطبيعة وضخامتها . الجميل مظهر القدرة والجليل مظهر القوة . والنفس تقابل القدرة بالإعجاب والقوة بالخشوع .

الإعتراف بالنقص

لا يعترف الإنسان بشيء مما يشعر بنقصه إلا إذا كان يريد أن يتوصل من ذلك إلى الإشتهار بنوع ما من الكمال . فروسو والقديس أوغسطين وهينى لم يذيعوا كل تلك الأسرار الخفية التى سردوها فى اعترافاتهم - من غير أن يخشوا أن ينقلها سواهم على غير حقيقتها

- ٢١ -

أو تكون هناك ضرورة ماسة لإذاعتها - إلا طمعًا في الإتيان بمزية الصراحة الفلسفية أو الدينية وهي أكبر في نظرهم من جميع تلك المزايا التي جردوا أنفسهم عنها بمحض اختيارهم .

الأطفال رجال صغار

نفوس الأطفال أصدق معرض تدرس فيه أخلاق الرجال فإن جميع ما يضحكننا من طباعهم كالأنانية والغرور الشديد والغيرة الحادة وحبهم المفرط لاستجلاب المدح والإعجاب يظل كامنًا في نفوس الرجال . تتغير أشكاله وموضوعاته من الألعاب إلى العروض الحقيقية وهو باق لا يتغير وإنما يضطرون إلى مداراته لأنهم لا يجدون من يحتمله منهم كما كان يحتمله آباؤهم وأمهاتهم .

المساومة في التجارة

كثرة اللجاج والمساومة في بيوعنا تدل على أن تجارنا لا يحسبون حسابهم ولا يعنون بتقدير أرباحهم كما يوافق رؤوس أموالهم بل يدعونها عرضة لتقلبات الصدف إما إلى المكسب أو إلى الخسارة وربما رجع هذا الإهمال معظم السر في اضطراب السوق المصرية وتذبذب الأسعار بين الهبوط والصعود .

حماية العرض

لا يمتدح الرجل بأكثر من نسبه القوة إليه কিفما كان مذهبه في تفسيرها . ولا يعبر بأكثر من اتهامه بالضعف কিفما كان مذهبه في تفسيره . والرجل يشتد حنقه للإعتداء على عرض لأنه دليل على

استضعافه ووهن جانبه . فقد كان الرجل يحمى النساء من قديم الزمن لأنه أقوى منهن وكان المنتصر في عهد القبائل لا يعتز بقوته ويؤيد ظفـره وتـمام غلبته بأقهر من سبى نساء القبيلة المغلوبة وقد كان النساء يعجبـن بالرجل بقدر حظـه من الصفات اللازمة لحمايةـن كالتـخوة والبهـالة والقروسية والبطش والقوة فكان ميل المرأة إلى غير رجلها أو إغواء امرأة في حوزة رجل إثمًا له في ذات رجوليته ، ولذلك تشتد الغيرة على العرض في الأقاليم الذين تنحصر صفات الرجولية بينهم في هذه المزايا الجسدانية . ولذلك أيضا كانت الأم أكثر إغضاء عن ذلة فئاتها من أبيها . وبعض قبائل البهجة تغض عن المعتدى على عرضها متى خرج من غير باب الخص لأنهم يعتبرون ذلك إقرارًا منه بالعجز عن مواجهتهم بالعدوان .

ثمرات اليراع :

إلا لا تعدن اليراعة آلة

تسوق لك الرزق الذي بت راجيا

يراع الفتى عود تعرى لحاؤه

ولا يثمر العود الذي عاد عاريا

منظر على عبر مرشح

كان صاحب هذه اليوميات في فندق (كترأكت) بأسوان حينما شاهد المنظر المحكى في هذه القطعة : نزلت بذلك الفندق بين السائحات في الشتاء الماضي فتاة كانت موضع إعجاب كل من رآها . وامتازت بشعرها الضافي الطويل على غير المألوف في نساء الغرب .

وكأنها أرادت أن تداعب عشاق جمالها الكثيرين . فبرزت يوماً في شرفة غرفتها بأزار النوم وهي تمشط شعرها وقد جلى ظهرها وجانباً من صدرها ونادت بالغلام فأعطته مظلة تظاهرت كأنها تريد أن توصلها إلى أمها وأشارت له إلى سيده في ردهة الفندق فجعل الغلام يغدو ويروح ويعرض المظلة على سيدة بعد أخرى وهو ناظر إلى جهتها وهي تسير إليه فاستلقت هذه الحركة إليها الجالسين فما كادت تتحول إليها أنظارهم حتى انفتحت إلى داخل الغرفة وأومات إليهم برأسها من وراء الستار كما لمفعل الممثلون وتركهم يضحكون ويصفقون كأنهم يستعيدون هذا المنظر الشائق :

أشرقت من جوانب القصر كالسر
هرة لاحت من جانب الأفق سرًا
في أزار يضم جسمًا من البللور
ر أصفى ومن جنى الورد اطرى
وتمشت فألقت السريح منها
كشعاع الأصيل في الصيف شعرًا
ثم نادت بناعم يشبه الفيشا
رجرا ويشبه العسود نبرا
زودت أمها بمسجاة^(١) خبز
ما تقى كالهواء للشمس حرا

(١) المسجاة كلمة رأيت أن أعرب بها ال (Parasol) وهي مظلة السيدات .

- ٢٤ -

أرسلتها لها ولو علقتها
فوق أهداب شعرها كان أخرى
ووقتها شمسا ولو نشرته
في ذرى القصر أصبح الظهر فجرا
أم تراها لو خاطبت أختها الشمس
أكانت تعصى لها الشمس أمرا

تربية المرأة

لا ينبغي أن يقتصر الغرض من تربية البنت على تعليمها كيف تكون زوجة ، إلا إذا كنا نعلم الفتى في المدارس ليكون زوجا . والواجب أن نعنى أولا بتعلمها ما تنشأ به امرأة قادرة على النهوض بنصف أعباء الهيئة الاجتماعية : فإن العشرة الزوجية ليست حرفة يتلقى الطالب أسرارها في دور التعليم ولكنها عمل كسائر أعمال الحياة يحسنه الإنسان أو لا يحسنه بمقدار ماله من الخدق والاختيار .

مذهب نيتشه

نيتشه عدو الضعف يريد أن يجعل العالم قويا لا بتطهيره من الضعف ولا بأن يهتم بترقية علم الطب ولكن بما هو أيسر عليه من جميع ذلك . باستئصال الضعفاء منه . يصبح أشياعه أنبلوا الضعيف ولا تأخذكم به رحمة لأن الرحمة تعاكس ناموس بقاء الأصلح في مهمته وتبقى على من لا يستحق البقاء .

ولكن من هو القوى ومن هو الأصلح للبقاء ؟؟
هذا مالا يمكن أن تعرفه من نيتشه ولا من أشياعه

إن القوى البدنية لم تعد ذات شأن في تمييز الصالح من غير الصالح فالضعيف والقوى يدرآن عن نفسيهما بسلاح واحد . وأضعف الضعفاء الذي لا يقوى على رفع أخف حمل عن الأرض في وسعه أن يقتل ستة من جبابرة المصارعين بتحريك أثقلته . ومع ذلك ففي أى وقت نبدأ بحصر الضعفاء والأقوياء ؟؟ ومن ادرانا أن هذا السقيم الفاني الذي نقتله اليوم لا يصبح صحيحا معافى غداً خصوصاً إذا نظرنا إلى ما يرجى من تقدم وسائل العلاج عامًا بعد عام ، وأن هذا الغليظ الشديد الذي نبقى عليه لا يصبح مثله سقيما في يوم من الأيام .

ثم من هو الأصلح وكيف نعرفه وبأى معيار نقيس صلاحه ؟؟ وإلى من نكل فرز الصالح من سواه ؟؟ وفي أى عمل نجربه . فى أى عمل واحد أم نتركه حتى نردده على الأعمال . وهل نعتبر صلاحيته بالنسبة إلى فترة محدودة أو بلد معين أم يكون ذلك بالنسبة إلى جميع الأزمان والبلدان .

ومن أدرى هؤلاء الجراحين الذين لا يحسنون غير البتر علاجا لعل الرحمة لا تكون من مقتضيات الرقي الانساني ولوازم الاجتماع البشرى إذا كان أصلها غير مشاهد فى الحيوان ؟؟

إن نيتشه واشياعه هم الذين يعاكسون بهذا التداخل ناموس بقاء الأصلح فإنهم بدلا من أن يتركوه مكبًا على عمله ينفى الضار ويبقى النافع يعترضونه فى وظيفته ويتحكمون فيما من شأنه واحده الفصل فيه .

تغيير المؤلف

أصعب ما على النفوس تغيير مألوف . فلو كان هناك نازلة تلم
بالإنسان من دون أن تغير شيئاً من مألوفاته لما أحس لها بألم . ولذلك
تخف وطأة الحوادث ويهون وقعها على من تتوالى عليهم المصائب
ويعلمون تقلبات الأيام .

ولو أن الرجل ينظر إلى غير الدهر إلى العوارض التي يستهدف
لها كل إنسان ولا يبعد أن تباغته في كل آن ومكان لتلطف عنه لدعتها
التي يتلوى من قوارض آلامها الذين تداهمهم على غرة واطمئنان .
وكذلك آلام الشيوخ . حزن ساكن لا يخالطه ذلك الوجع الحاد
الذي يمتزج بآلام الشباب .

الموت

الموت أعم المصائب وقومًا ولا يزال أشدها إيلاً وأقلها قبولاً
للعزاء . على أن ذلك لا يفيد أنه غير مألوف ولكنه يدل على أن
الإنسان لا يجزع لمصائب غيره كما يجزع لمصائب نفسه .

تواضع الملوك

الرعايا تحتسب للملوك تواضعاً ما ليس بتواضع في الواقع . فلو
علم الملك الذي يتنزل إلى مخاطبة السوق أن في ذلك ما يخض من
قدره بل لو علم أنه لا يرفع مكانته عندهم لما فعله .

الاثرة :

الرجل الايثارى فى الحقيقة يتحرى مصلحته أكثر من الرجل الانانى . فان الأول يحسب حساب مصلحة فى الحاضر والمستقبل والثانى يقصر نظره على المصلحة الحاضرة .

على أن الاثرة الممقوتة ليست هى التى نفسرها بأن يجب الإنسان الخير لنفسه . ولكنها الاثرة التى أساسها جهل حقوق الغير أو تجاهلها وهى أثرة عتاة المستبدين والأطفال ومن على شاكلتهم من الجهل بعواطف الناس أو عدم الاضطرار للاعتراف بها . وهى أيضاً أثرة من يطلق له العنان لحب نفسه وارضاء مطامعه ، وشر هؤلاء ضرراً على الاجتماع فى وقتنا الحاضر ففة الرأسماليين الذين تتركهم الحكومات يجمعون الأموال ويتمتعون ويتلذذون ويبدخون بما يسرقونه من أتعاب العمال وأرزاقهم . وهذا هو الخلق الذى لا يحسن أن يكون فى شخص يعيش بين الملايين من أمثاله ويجب أن تطارده الهيئات الاجتماعية بكل وسيلة لأنه آفة الاجتماع .

الحاجات والقدم :

حاجات السواد الأعظم منا لا تزال حيوانية صرفة . أكبر علامات المرض عندنا الحمية عن الطعام . فلان لا يأكل ولا يشرب أى أنه بلغ أشد الداء أو أشد الغم . يبكى الطفل فلا يخطر لأمه أن أمراً يكيه غير الجوع : يحرم أكثرنا أكل الفاكهة وشم الزهور وشهود الحفلات وغشيان الملاعب والمتنزهات لأنها كما يقولون لا تسمن ولا تغنى من جوع . يكد فلاحنا طول يومه بل قل طول عمره ليجد

ما يمسك رmqه ثم لا تسمعه يتذمر أو يشكو كما يفعل الفلاحون في الأقطار الأجنبية لا لأنه يزهد كسقراط أو يتقشف كديوجنس ولكن لأنه يجهل ما يطلبه بعد حشو معدته ودفء جلده ، وإذا سمعته يشكو فقل أن تسمعه يتظلم لأنه لا يحدث نفسه بأن هناك أحدًا يظلمه حقًا من حقوقه . حاجات ما أحسها لا يمكن أن تقنع العجماوات بما هو أحس منها . فإذا صح أن رقي الأمة إنما يحسب بقدر تعدد مطالب الفرد ، فما أبعدنا عن الرقي الحقيقي وما أبعد الرقي الحقيقي عنا .

الرياء :

ما رأيت مرائيا إلا وجدته مغتابا تمامًا . والجراءة على الناس في غيبتهم كالترلف إليهم في حضرتهم . كلاهما علامة الجبن والصغار .

الكلام والاوزان :

يظهران قوالب الجمل وأوزان الكلمات أثبت انتقاشًا في الذهن من حروفها فرمبا نسي الإنسان معنى الكلمة أو حروفها فرمبا نسي الإنسان معنى الكلمة أو حروفها ثم ذكرها بوزنها وقد يسبقه لسانه فيخلط بين الحروف مع حفظ الأوزان . فإذا كان يريد أن يقول مثلًا وطفقا يخلصفان نطق بها وخصفا يطفقان كما نسمعه أحيانًا من بعض الحفاظ . ولعل سرعة استظهار الأشعار والكلام المقفى سببه مثل هذا .

العالم في نظر أكمه :

حاولت أن أقف على صورة العالم في مخيلة غلام أكمه فقال لي

أن يراه كأنه هيولى مضطربة فى ظلمه قائمة لا أول له ولا آخر .
قلت لا تأس يابنى . أن أنفذ الناس بصراً أو بصيرة لا يرى منه أكثر
من ذلك .

الموسيقى

- التلازم متين بين الأصوات والانفعالات الباطنية وهو أمتن بين
الانفعالات والحركات البدنية . فإن الحيوانات والوحوش والهمجيين
والأطفال والنساء أحياناً ، تترجم عن شعوراتها بالصياح على كفيات
مختلفة مقرونا فى الغالب ببعض الحركات البدنية . ثم أن لكل من
حالاتنا النفسانية لهجة خاصة وكل لهجة لها هيئة تناسبها . فلهجة
المسرور والظافر والشاكى والحزين والمتألم والغضبان تباين تبايناً يشعر
باختلاف مصادرها . وإنك لتسمع الخطيب الذى لا تفهم لغته فتعلم
من تغير لهجته وارتفاع صوته أو انخفاضه إن كان راضياً أو ساخطاً
حائثاً أو محذراً مبشراً أو منذراً .

فإذا وقع الموسيقى صوتاً تنبه الاحساس الذى يناسبه على الأثر
فى نفوسنا . كأنهما فيها متلازمان لا ينفكان . وفى الأصوات التى
يشتهد لها طرب السامع يتنبه مع ذلك الاحساس حركة بدنية مطاوعة
للنغم الذى يسمعه . فيهز رأسه أو يحرك عضواً من أعضائه . وهذا
أول درجات الرقص ثم يرقص . وقد لا يملك نفسه مع الرقص من
الترنم بالصوت الذى يسمعه أو الغناء بما على وزنه من الكلام
المفهوم .

فنحن في قبضة انفعالاتنا تتلاعب بنا كما تلعب الأم بوليدها بين ذراعيها . نرقص ونشب ونصيح بالرغم منا كما يفعل الهمج والعجمات . وترانا في ألطف مظاهر أنسنا نحن إلى همجيات أولئك الجدود .

نهاية الرقي

الرقي العصري كفيل بأن يصل بالانسان إلى درجة تكون فيها إرادته قانونه وترفع عنه كثيراً من سلطة الحكومات عليه .

الميراث :

ليس للانسان حق أن يحتجز من الثروة العامة إلا بقدر ما يقوم لها من العمل . فالرجل يسقط حقه في التصرف بثروته متى انقطعت أعماله لموته . وعلى الهيئة الاجتماعية الانفاق من ريعه على من يهمة أمرهم من بعده .

يترك الرجل لابنك ضيعة . والضيعة قبل عشرة أعوام لا تكلف صاحبها إلا سعياً طفيفاً ولكنها لا تنال بعد عشرة أعوام إلا بتكبد المشاق والصعاب . فيتمتع ذلك الابن الكسول بجزء من الثروة العامة من غير أن يقدم لها عملاً في نظيره وإلى جانبه رجل مجد نشيط يقطع عمره كدًا وكدحًا دون الوصول إلى اقتناء ضيعة مثل ضيعة . وهو نحل متشعب في تقسيم ثروة الأمة لا يستقيم حال الجمعية البشرية إلا بتلافيه .

فراصة المرأة :

المرأة ألطف زكّانة وأفطن إلى تشابه الملاح من الرجل . فقد رأيت بعض النساء يرين الطفل الصغير قبل أن تتشخص ملامحه فيحكمن بأنه من آل فلان وأن فيه شبه العائلة الفلانية وقد لا يبدو لغير المتأمل أن بينهما أدنى شبه . والظاهر أن كثرة اشتغالهن بتجميل الملاح قد أكسبن هذه الخبرة فيها .

التاريخ القديم :

كتب التاريخ القديم أقرب إلى الإحصائيات أو سجلات المواليد والوفيات منها إلى التاريخ . فإذا قرأت فصلا عن رجل عظيم ذكروا لك اسم ابيه وأمه ويوم ميلاده ويوم وفاته والبلد الذي نشأ به والبقعة التي قبر فيها . فعرفت اسما ولقبًا ويوما وبلدًا وقبرًا ولكنك لم تعرف رجلا .

الطلاق :

إن أكثرنا يظن أن المرأة من متممات زينة البيت فكما أن في البيت متاعًا وأثاثًا عن كل صنف . كذلك يحسن أن تكون فيه واحدة أو أكثر من صنف النساء وأن بعضهم ليغير زوجته مرارًا ولا يغير ملاءة سريرته .

تعدد الزوجات :

لا أعلم لماذا يسوغ للرجل أن يستحوذ على أكثر من أربع نساء ولا يسوغ للمرأة أن تطمع في أكثر من ربع رجل إن لم يكن أقل ؟؟

- ٣٢ -

أقدار المجد :

من حسن حظ العظماء أنهم وخدمهم الذين يطلعون على الدنيا التي يتلطف بها طلاب المجد الكاذب .

التفكير :

التفكير بالعقول عمل يسير ولكن نزع الغرور منها من أصعب الأمور ولأن تمنى الإنسان بالباطل أحب إليه من أن تيمسه بالحق .

أحاديث الشبان :

من شبان العصر من إذا جلست إليهم لتتصت إلى محادثاتهم حرت في تحديد موضوعها . يبدأ أحدهم بالكلام ولا يتمه ويسأل السؤال ولا ينتظر جوابه . يغنى ثم يقتضب الغناء ثم يضحك . ينتقل من كلام تافه إلى كلام أتفه بلا مناسبة أو صلة بين الكلامين . بحيث يسأل الإنسان نفسه أما كان يمكن أن يستغنى هذا عن لسانه ؟ يشير بيديه ويهز رأيه وقدميه . ويدور هنا وهناك بغير غرض ولا موجب . كأنما عليه أن ينطق بقدر معين من الكلمات ويأتي بعدد معين من الحركات فهو لا يقصد من كل إشاراته وعباراته إلا أن يصيب العدد المطلوب .

الحرب :

من أقوال فتزجر الدعلي ما أذكر - «إن الحرب تجر إلى الفقر والفقر يحث على العمل والعمل يورث الغنى والغنى يسبب الشقاق والشقاق يفضى إلى الحرب ...»

ولا أظن أن هذه السلسلة ستحفظ نسقها في هذا الزمان . بل

أرى على العكس من ذلك أن السلم سوف يكون في المستقبل مسيحا بسور من الذهب والفضة فان انتشار المعاملات واشتباك المرافق الاقتصادية بين الأمم سيكون أول باعث على اتقاء مواقف القتال .

فقد ضعفت الخلافات التي تفضى إلى الحرب بمقدار ما عظمت خسائرها . وكلما تقدم الزمن زادت هذه فداحة وتلك ضعفاً .

فالحرب لا تتركز على شيء من الطبايع البشرية . بل هي تنافرها كل المنافرة . فالرجل لا يخوض غمراتها إلا فراراً من عار الناس أو عقاب الحكومة أو سحق الله أو دفعاً لخطر على حرته . فهو يقدم على موت مشكوك فيه فراراً من موت محقق أو ماهو بمنزلة الموت المحقق .

فالشجاعة العسكرية عادة اصطناعية . والناس جناء بطبيعتهم أى أنهم سواء في الخوف من الموت حتى الجنود . على أن هؤلاء يتظاهرون أنهم لا يسوون فقط بين الموت والحياة . بل أنهم يعشقون الموت ويغضون الحياة . فيقول^(١) أحدهم متهمًا كلما انحنى جندي في ساحة الوغى من طريق رصاصة توشك أن تثقب صدره : أهى صديق تنحنى له ؟؟ . كأنه ليس في نفوسهم من كراهة الموت ما يتجشمون من أجل اتقائه احناء الرأس !

(١) اعتمدت في وصف أحوال الجنود وهواجس نفوسهم على رسالة صغيرة للكونت بولستوى عنوانها «سفساستيول» وعلى مقالة كتبها مقدمة لكتاب ضابط روسي عن الحرب التي وقعت في تلك المدينة أحسن فيهما وصف حركات الجنود وأطوارهم ومثل أحوال الحروب ومنكراتها أحسن تمثيل .

قال تولستوى وهو قائد قديم : (إن شجاعة الجنود من جنس شجاعة البغال التى تقف الى جانبهم مشدودة إلى مدافعها . تحاول الإفلات وما تستطيع انفلاتاً) فمهما أوقى المرء من الشجاعة فلا تصدق انه يقتحم الحرب وله مندوحة عن اقتحامها ، كذلك مطمئنة لا تصدق أن إنسانا يواجه الحرب بطبيعة ساكنة لأن الطبيعة البشرية تأبى التعرض للخطر وتنفر من دواعى الهلاك . فالهمجيون يهيجون طبائعهم قبل الحرب إلى حد الجنون بدق الطبول وقرع الدفوف والولولة والصياح والمتمدنون يتشاغلون عنها ويتحاشون ذكر القتلى والإصابات والخسائر وكل ما يخلق فيهم الشعور بحقيقة موقفهم . فيصرفون خواطرهم عن هذه الهواجس بسفساف القول وتوافه الأحاديث فلا تسمع بينهم لحوادث الحرب ذكراً أو خبيراً كأنهم ليس فيها ما يستحق المبالاة بينما تكون الحوادث سمر أخلاط الناس على بعد مئات الفراسخ والأميال . هذا على أن تعرض مئات الألوف من الناس فى صعيد واحد للخطر واحد من شأنه أن يهون الأمر على كل منهم ويشدد عزيمته على اقتحامه .

وأنه ليس أسخف من أن تسمع ضابطا يشكو ويتأفف من حصن تنهر عليه المقلوفات من كل جانب وتنفجر حوله وعلى جدرانها القنابل بين كل دقيقة ودقيقة . وتسأله فيقول لك . إن الطريق إلى الحصن موحلة فهو يعانى صعوبة فى السير عليها .

قال بعض قواد الألمان حديثاً أن الحرب تنمى فى النفس كثيراً من الصفات الممدوحة وأهمها تضحية النفس فى سبيل الواجب . على أن هذه هى الفضيلة الوحيدة التى لا تمنعها الحرب وتنمى ما يناقضها تماماً .

فكل جندي وكل ضابط نابليون صغير - كما يقول تولستوى - يزهد بقدر ما يمكنه من النفوس وييم بقدر ما يمكنه من الأطفال ويدمر بقدر ما يمكنه من الدور ليلصق بذراعة شريطاً أو يحلى صدره بنيشان يخطف به أبصار البسطاء .

ومع هذا فهما كان نصيب رأى ذلك القائد من الصواب فالإنسانية يجب أن لا تعول في اكتساب هذه الفضائل على مثل هذا البرنامج الصعب . فانه برنامج يكلفها من النفوس والأموال ما هي في غنى عن احتماله .

فالأمم الآن لا تلجأ إلى الحرب إلا كآخر وسيلة لحل الخلاف . وأين هو الخلاف الذي يربو الضرر فيه على ضرر الحرب المترتبة عليه ؟؟ وهل يبلغ تنازع البقاء بين أمتين في عصرنا هذا أن تسحق إحداها الأخرى لتتخلص من مزاحمتها ويخلو الجو لتتاجرهما ؟؟

إن أقوى بوادر الخلاف قائمة الآن بين انكلترا وألمانيا وهذا الخلاف لا حقيقة له ، فهو مبني على توهم كل من الأمتين أنها قد تتعرض لمهاجمة الأخرى في المستقبل . فاذا سألت : هل مصلحة ألمانيا تقضى عليها بغزو انكلترا أو إحدى مستعمراتها وهل تقضى انكلترا بغزو ألمانيا أو إحدى مستعمراتها وهل الفوز في المنافسة التجارية يتوقف في المستقبل على مثل هذه الوسائل العنيفة ؟؟ اجابتك على كل شواهد الأحوال سلبي .

والامم لا تترك اليوم لكل أمة تمام الحرية في الموازنة بين مقتضيات

الحرب وموانعها بالنسبة لها وحدها فإن أكثر الأمم تشترك في تحمل خسائرها وأن لم تشترك في حشد الجنود وجمع الذخائر . فقد بلغ من استحكام الروابط الاقتصادية بينها أن أقل إشاعة بوقوع الحرب في أقصى المعمورة توقع الارتباك في السوق المالية فتتخفف الأسعار وتهبط الأسهم وتزعزع الشركات عدة أيام .

والذى يشاهد من انتشار نفوذ أحزاب الإشتراكيين والعمال وهم الفريق الذى لا مصلحة له فى الحرب ، ذلك كله مما يقوى الأمل فى أن يوم إبطال الحرب أقرب مما ينتظر بكثير .

الاستخدام

موظفنا الصغير يبيع حرثه ووقته وعمله بخمسة جنيهات فى الشهر . يناط تقدير كفاءته بإرادة غيره وربما أريد منه فوق الكفاءة فى العمل كفاءة أخرى فى الملق والدهان . ينقل من بلد إلى بلد بغير اختياره ويجبر فى كل مرة على ربط صلواته بقوم وقطعها من آخرين ثم تحظر عليه الحكومة اقتناء الأرض والعقار فى الجهة التى يشتغل بها كأنها تركت له ما يقتنى به - وهو معرض فى أية ساعة للنقل إلى أية جهة فأين يباح له الاقتناء؟؟ ونحرم عليه الاشتغال بأمر البلد الذى هو فيه كأنما هى اقتلعت من العالم الخارجى من جذوره . وهو مع ذلك يحسب أنه الراجح فى هذه الصفة وأنه لا يمكن أن يجد هنا من هذه العيشة . يصل إليها بعد أن يتخطى عشرات المزارحين عليها .

(مباراة فى الخيال ، بين حسن الانسان وحسن البستان) :

- ٣٧ -

الموضوع

انجملت يا ورد حدود الحسان فاحمر منها ناضر كالدهان
ورعت يا فل عيون المهى فاطرقت تطلب منك الأمان
وزمت الغيد شفاها لها لما انجلى ثغرك يا اقحوان
ومالت القامات غضبانة لما انثى في روضة غضن بان
وأين شدو الطير في مزهر من مزهر تشدو عليه القيان

الأسباب

فالورد ما احمرت له وجنة من رية حاشا لورد الجنان
والاقحوان الغض لم يتبسم خبثًا ولم يندس بمين اللسان
وقامة الاغصان لم يثنها كبر ولم يعطف بهن اقتنان
وذاك صداح اهزازيجة لا تشتري بالتبر أو بالجمان
لا يحرم الماهن من لحنه ما يسمع العاهل ذو الصولجان

الحكم

ما أحسن الحسن واحسن به من زينة للناس لولا الحسان

العشق

لا أرى العشق إلا نزوة من نزوات الشهوة البهيمية يخصصها في
الإنسان بامرأة - دون سواها - تفاوت الملامح في انثائه . وتعم في
البهائم لأن تماثل انائها في الخلقة لا يدع ما يحتم الانجذاب إلى انثى
بعينها من بقية الاناث .

والحب الشريف والحب الخسيس معدنهما واحد وغرضهما واحد

وطبيعتهما واحدة . والذين يتوهمون أنهم إنما يعشقون لمحض التفرج على الجمال الصورى يخدعون أنفسهم فأن من التماثيل المنحوتة ما هو أجمل صورة من أجمل امرأة فى العالم ومع هذا فنحن لا نشغف به ولا نتدله فى حبه . وغاية الفرق بين الحين الشريف والخسيس أن الأول حب العقلاء الذين يسوءهم تضحية احبائهم لشهواتهم وأن الثانى حب الحمقى الذين لا يفكرون فى غير قضاء الشهوة .

وهو - أى العشق - أحد الشهوات لأنه الشهوة الوحيدة التى إلا تم الا بتراضى شخصين يحتاج كل منهما إلى الشمائل والأوصاف التى يصبو اليها الآخر ليقترب كل منهما إلى صاحبه من بين ألوف الرجال والنساء . فالخيبة فى العشق - اليأس من الذات التى لم يستحوذ على اعجابنا سواها من كل هذا الملأ والتى لا يهمننا من كل هذا الملأ أن يعجب بنا سواها - هذه الهيبة أو هذا اليأس ليس معناه فقط عدم التمكن من قضاء شهوة . بل معناه أيضًا أن العاشق ناقص فيما يسترعى إليه قلب المعشوق الوحيد الذى لا يبالى أن كان كاملا من هذه الوجة فى نظر غيره . أى ناقص فيما هو به رجل يستحق إعجاب المرأة التى وقع عليها اختياره من النساء أو فيما هى به امرأة تستحق إعجاب الرجل الذى وقع عليه اختيارها من الرجال . بغض النظر فى جميع ذلك عن فوارق الدرجة والمقام فان هذه مميزات تميز رجلا على رجل أو امرأة على امرأة ولكنها لا تميز ذكرا على ذكر أو أنثى على أنثى .

- ٣٩ -

قطرنا ندى على فسيلة قبر

أعام عييت في الدنيا جهادا قضيت وما قضيت بها مرادا
وما ابلاك إلا اهتم داء وشر الداء ما نال الفؤادا
ما كنت اقرأ مناعى الجرائد لأنها بكاء مأجور كبكاء النائمات .
لا تصادف فيها عين القارىء إلا ما تصادفه على ألواح الأضرحة عند
النحات من إعلام مجردة لا تتبين وراءها وجها ولا تستشف لها
معنى .

ما كنت اقرأها من قبل ولكنى في ذلك اليوم قرأتها . فقد كانت
تبدو عليها كباوة الحزن وتعلوها غيرة الكمد . فقرأتها ثم قرأتها فإذا
هى تنعى اماما العبد . فأعدت قراءتها فإذا هو بعينه أمام . صاحبي
أمام الذى ما تعودت أن اقرأ اسمه فى الصحف إلا مقرونا بملحة من
ملحه الرقيقة أو طرفه المستظرفة .

أبيت أن أصدق الخبر . والنفس البشرية إذا أبت الموت لأحد .
تشأ أن أصدق نعيه . فما أكذب تعلاتك إيتها النفس . كان ذلك
لو كان كل أمر إنما يجرى على هواك ووفق مرادك . ولكن ما هذه
التعلات منك والأمر كأنما تجيبىء عمداً على خلاف ما ترومين وبضد
ما تشتين .

فسقطت من عيني دمعتان ما أردت لهما إرسالا ولم أحاول لهما
كتما . دمعتان ليستا بالحارتين فقد أطفأت الأسقام جذوة قلبى وتركته
جلدة ميتة ما تحس ولا تألم دمعتان لا تتقد فيهما حرارة اللهب
ولكنهما مشبعتان بكل ما فى دموع الأصدقاء على الأصدقاء من مرارة
الشجو وغضاضة الأسى .

- ٤٠ -

فذكرت لإمام الأمس المدرج اليوم في وحشته ، ساعات طبيبات
ما كنا نحسبها للزمن ولكنها الآن حسنة من أجمل حسناته لو أنها
تعاد . وضحكات مفتصبة في غفلة الأشجان والأكدار ، وهي الآن
حسنة من أجمل حسناته لو أنها تعاد . وضحكات مفتصبة في غفلة
الأشجان والأكدار ، وهي الآن عبرات تشرق بها عيون أصدقائه
والعارفين بظرفه وأدبه .

وذكرت له جلساتنا في قهوة استانبول التي كان يختلي إليها كثيراً .
ناوى إليها في قيلولة الظهيرة نستنشق هواء الحديقة ونسمع منه أنحف
من نسماته فكاهة واشفى منه للنفوس نكات يفرج عن الصدور
كربها وهو أشد الناس كربا ويزيح عن القلوب غمها وهو أعمهم
بالغم قلبا .

لكن الآن ؟

الآن قد مات ا

مات قبل أن يداوى الدهر القاسى طعنه من طعناته التي أنحن بها
جسده النحيل . مات قبل أن تبتسم الدنيا لفؤاده الكسير مرة بعد
ذلك العبوس الطويل . مات في عنفوان الصبا ومقتل الشباب .
فالوداع أيها الصفى الوفى وداعا أبديا ليس يعقبه سلام . والفراق
أيها الصاحب الودود فراقا سرمديا لا مطعم بعده فى لقاء .

الالعاب غير الرياضية

إذا انتشرت الالعاب غير الرياضية كالورق واللدومينو والنرد

والشطرنج والسيجة أمثالها كان ذلك دليلا على كثرة البطالة أو نضوب مادة الحديد في الوسط الذي تنتشر فيه . وكلاهما دليل التأخر .

النقود والسخاء

يهون البذل في الجهات التي تتعامل بالمقايضة أكثر من الجهات التي تتعامل بالنقود . فان الدرهم قد تقضى به عدة أصناف مما يشرى بقيمته . على حين أن مقداراً بقيمته من الخنطة أو الأثمار أو الخبز لا يؤدي بعينه في غير ما يستعمل له عادة . والمتكفون وأبناء السبيل يطوفون على الفلاحين في أيام الحصاد فينفحونهم بحفان الغلال والحبوب عن طيب نفس ، وقد يسألونهم مليماً فلا يسمحون به وهو أقل قيمة مما يعطون .

بقايا الميثولوجى :

في الميثولوجى القديمة - والحديثة أيضاً - كثير من الأبطال الذين ولدوا من آباء آلهة أو انصاف الهة وأمهات من عذارى البشر .

وفي أيامنا هذه من يعتقد امكان التزاوج بين رجال الأنس ونساء الجن وإن لبعضهم أولاداً من بنات البحر يدعون آباءهم بالمعاشرين .

الفضيلة المأجورة :

إذا كنا نعد المرائى الذى يقرض بسعر خمسين في المائة رجلاً طماعاً مغتالاً فليس من الزهد ولا من حب الخير أن يقرض الرجل ربه بسعر ألف في المائة مؤجلة إلى يوم الحساب .

- ٤٢ -

وإذا كان الرجل الذى إنما يمتنع عن السكر والمقامرة خوفاً من محاضر البوليس لا نراه ، فى نظرنا رجلاً تقياً نزيهاً . فليس من الاستقامة والفضيلة أن يتركهما الرجل خوفاً من نار الجحيم .

وإذا كنا لا نستعظم من الطفل الصغير أن يحفظ درسه لأنك وعدته بتصويرة أو يتجنب اللعب لأنك أخفته من الغول . فالرجل الكبير الذى يفعل الخير طمعا فى الثواب ويتعدى عن الشر خوفاً من العقاب لا يأتى ما يستحق عليه الاطراء والأكبار .

إن كل إنسان يعمل عملاً فإنما يترقب من ورائه نفعاً لشخصه ولكن يجب أن يكون ذلك النفع نتيجة محتمة تستلزمها طبيعة عمله ويرتبط بها العمل ارتباطاً النتيجة بالمقدمة وليس مكافأة أو أجراً ينتظره من سواه .

المبادئ :

الرجل الذى لا يتقيد بمبادئ عامة يطبق عليها آراء الخاصة ، إما رجل سطحي يجهل سر العلاقة التى تماثل بين الحوادث . لذلك يجهل كيف يحكم عليها حكماً عاماً يوحدها فى نظره . أو رجل محنك يدرك سر علاقاتها فيحكم على كل عمل على حدته لأنه علم بالاختبار أنه لا يحدث عمل مماثل الآخر من جميع الوجوه . ويغلب أن يكون صاحب المبدأ شخصاً نظرياً ناقص الاختبار .

الاعتماد على الذات :

إن الذى يكل إلى الناس تقدير قيمته يجعلونه سلعة يتراوح سعرها بتراوحهم بين الحاجة إليها أو الاستغناء عنها .

والطريقة المثلى أن يقوم كل انسان لنفسه قيمتها . فان المرء كما يقول بعضهم يساوى القيمة التى يضعها لنفسه . ذلك خير من أن يطرحها فى المزاد على السنة الناس .
شرف المهنة :

صاحب المهنة يباهى بمهنته كأنه لم يرغب فيها إلا بعد أن تبين مزاياها . وهو يضجر منها كأنه سيق إليها قسرا - وذلك لأنه حبا بنفسه يود لها بما فى وسعه أن يكون أقل الناس تعباً وأكثرهم اعتباراً .
بماذا يشفى الشعراء

أصحاب القرائح الشعرية لا يتمتعون بالحياة الحقيقية كبقية الناس فان حياتهم كلها ذاهبة بين أمل فى المستقبل أو ذكرى للماضى وقل أن تستقر بهم نفوسهم فى الحاضر الراهن لأنه دائما على غير ما يشتهون . والشاعر مكتوب عليه الشقاء مادام مطبوعا على مواهب الشعراء . فهو حاد الخيال تصور له قريحته العالم حافلا باللذة والنعم مترعا بالصفو ودواعى الهناء مما لا يصدقه الواقع . وتريه الناس على صورة تبرهن المعاشرة على خلافها . وهو لطيف الاحساس دقيق الشعور يوجعه مالا يكاد يحس به غيره وتفعل فى نفسه الوخزة الهينة مالا تفعله الطعنة القاسية فى نفس غيره وهو فاتر الهمة ، ميال بطبيعته الى الدعة والاستسلام محروم من العزيمة الصارمة التى تمكنه من تحقيق أحلامه العديدة وإدراك آماله البعيدة وهذا من أشد ضروب الشقاء كما قال شاعر منهم :

وأتعب خلق الله من بات آملا وأقصر عما تشتهى النفس نائله

وهو سليم الطوية طيب القلب ينطلي عليه خداع الناس وختلهم
وتغره تموياتهم فيركن إليهم ثم لا يلبث أن تكشف منهم الأيام ما يخلف
ظنه ويخيب ثقته . وهو عجول كالصبي تتحكم فيها إحساساته الوقتية
كأنه الصائم بانتظار الإفطار ، سرعان ما تبدو له النعمة بعد ضحك
فينغمس فيها غير حاسب للعاقبة حساباً أو مبق لغده بقية . فإذا ولت
أيام الرخاء وجاءت بعدها أيام الشدة كان ذلك أدعى إلى طول
حسرتة وتنغيص عيشه . وهو سريع التقلب كثير الضجر لا يألف
البقاء على حال واحد فلا يصبر على الشظف وهو يعرف الترف ولا
يرتاح للفقر وهو يفهم ما هو الغنى - فبغير هذه الأطوار - التي
هي من مستلزمات سرعة الخاطر وهو من مستلزمات سليقة الشعر -
لا يكون شاعراً مطبوغاً . وبها لا يكون سعيداً . إلا أن الطبيعة التي
سلطت عليه كل هذا الشقاء لم تحرمه مما يعينه عليه . فكما أن خياله
ينيه باللذة الوهمية كذلك يخفف عنه الألم الواقع وكما أنه شديد
الإحساس بالحزن كذلك وهو شديد الإحساس بالسرور . ولكن كان
محروماً من جمع الأموال وتأثّل العقار واقتناء القصور والضياع فان
له نوعاً من الارتفاق في كل شيء يراه . قال اديسون في رسالته عن
الخيال :

«ربما أحس مثل هذا الرجل في مشاهدة المروج والبساتين بارتياح
أكبر مما يجده بعض الناس لامتلاكها فكأن ذوقه الدقيق يخوله نوعاً
من الامتلاك في كل ما يقع تحت نظره ويجعل أبسط ما في الطبيعة
وأبعد مناظرها عن الصقل والتهديب تشترك في ترويح نفسه وتطيب
خاطره . وكأنه ينظر إلى هذا العالم على نور غير نور الشمس فيكشف

منه غير ما يكشف ذلك النور من ذخائر تحجب نفسها عن أكثر
من تراهم الناظرين»

داء الحياة

لقد ثقلت على نفسي حياتي وأشفق عائدي وشكيت أساتي
سئمت فما أريد اليوم إلا دواء الموت من داء الحياة
إذا كانت حياة المرء سجننا فشق اللحد باب للنجاة

القول والقائل :

«أنظر إلى ما قيل لا إلى من قال» قاعدة لا يصح إطلاقها في كل
حال فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائلها . فان كلمة مثل قول
المعري مثلا :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد
يؤخذ منها مالا يؤخذ مما تسمعه في كل حين بين عامة الناس من
التذمر من الحياة وتمنى الخلاص منها . فأنا نثق بأن المعري مارس
الأمر الجوهري في الحياة ودرس الشئون التي تكون منها عذبة أو
مرة ، نكدا أو رغدا . ولم يسر منها أولئك العامة إلا ما يقع لهم
من الأمور التي لا تكفى للحكم على ماهية الحياة .

الآداب القديمة :

الآداب القديمة مبنية على جهل فاضح بالغرائز الرئيسية في
الإنسان ، فهي تقول له : من نظر إلى امرأة أجنبية واشتهاها (فقط)
فكأنما زنى . من أحب الحياة ورغب في حطام الدنيا فمحال أن يكوم

- ٤٦ -

صالحا . من عمل حسنة يريد بها الجاه بين الناس فقد انتكس عمله .
الحزن لفقد البنين والأصدقاء اثم وكنود الخ ويزيدها جهلا على جهل
أنها لا تعد هذه الأميال من دواعي فطرته ولكنها تراها وساوس من
روح خارجية توسوس له بالشر وتبعده عن الخير .

الإصلاح الاجتماعي :

قد نعرف ما هو الفاسد من نظمات الاجتماع ولكننا لا نعرف
ما سيكون صالحا منها . نقدر أن نهدم بناء متصدعا ولكن لا نقدر
أن نقيم في موضعه بناء جديداً : جهد ما يطلب من المصلح الاجتماعي
أن ينه إلى العيوب والأغلاظ التي في مجتمعنا فتتلافها أما أولئك
المصلحون الذين يخرجون كل يوم للناس بنظمات وشرائع ودرسات
ومذاهب يدعونهم إليها بزعم أنها كافلة بصلاح الاجتماع فلا يمكن
أن يقال أنهم يتجاوزون حيز التخمين إلى التحقيق . ذلك عمل انفرادي
به الزمن ولم يشرك فيه أحداً .

الضحك :

للضحك عدة أسباب أكثرها يدور حول محور واحد هو الإغتياب
بأنفسنا . إغتيابنا أما بما نحسه من كمالها أو بسلامتنا من النقص الذي
نكشفه في سوانا .

ولما كان الإنسان لا يضحك إلا سرورا برجحانه فهو لا يضحك
في الأحوال التي رجحانه فيها معروف غير مجحود . فالرجل المعروف
المكانة ليس يسخر من تصرف الصعلوك الوضيع وإن كان مضحكا
في ذاته . إلا إذا كان يسخر من أهل طبقة لياهي بطبقته . أو من
أهل بلاد لياهي ببلاده .

وقد يضحك الإنسان من نفسه إذا كان الاستهزاء لا يناله وحده .
فلما كان ملوك أوروبا وامبراطرتها وإمراؤها وسواسها وقوادها
مجتمعين في سنة ١٨٥١ في فينا . وهم واثقون أنهم أحكموا الشبكة
على بونابرت . وقد جلسوا يصلحون ما أفسده ويعيدون ما درسه
من معالم أوروبا أعلن في المجلس في ١١ مارس من تلك السنة أن الرجل
قد أفلت من جزيرة ألبا وأنه قد عاد ثانية امبراطورا على فرنسا .
فوجموا هنيئة ثم ارتفعت لهم ضحكة طويلة عالية كأن كلا منهم
يقول - إن هذا الكروسيكى لم يعث لى وحدى بل عث بنا جميعا .
البكاء :

يىكى الإنسان لغير ما يضحك له . يىكى حين يظهر به النقص
والعجز ظهورا لاسبيل للمنجاة منه . يىكى في المواضع التى يشعر
لديها بالقهر التام ويتحقق له تجرده عن الحول والقوة حياها . في تلك
المواضع يقول المسلم متمثلا « لا حول ولا قوة إلا بالله » كأنه لا يريد
أن يكون ضعيفا إلا أمام الله الذى يتساوى الناس عزيزهم وذليلهم
في الضعف أمام حوله وطوله . والأطفال والمستضعفون أكثر الناس
بكاء لأنهم أقلهم اقتدارا . على أن عدم البكاء لا يفيد في أكثر الأحيان
القدرة على دفع المصاب . فان من أصحاب المظاهر والأبهة من يترفع
عن البكاء ويتكلف الجلد والسكون حتى في الفجائع الفادحة كأنهم
يأبون الإقرار بالانقهار على كل حال .

الفنى والسعادة :

لا تحسبن غنيا في تنعمه قد يكثر المال مقرونا به الكدر
تصفو العيون إذا قلت مواردها والماء عند ازدياد النيل يعتكر

الحرية الشخصية وتقدم الحركة الاقتصادية :

في البلاد التي تشتبك فيها المصالح وتتوشح الأعمال تجرد الناس ينساق بعضهم إلى معاملة بعض قسرا ، وكثيرا ما لا يكون الرجل اختيار في معاملته أكثر من اختياره في أقربائه وذويه . فلا ينظر منهم ولا يقدر أن ينظر إلى غير الغرض الذي يقصدهم من قبله . فمن ثم كان كل عامل لا يعنى تجويد عمله ، وليكن بعد ذلك سكيراً أو مقامراً ، نصرانياً أو يهودياً ، ملحداً أو مؤمناً ، محافظاً أو حرّاً ، فلذلك ما لا يسأله عنه أحد . فاحترام الحرية الشخصية - الذي معناه سقوط رقابة البيئة عن الفرد - يكون في مثل هذه الأقطار على أتمه ، بل يكون من الآداب الاضطرارية التي لا يحض عليها بالرسائل أو المقالات .

القوة والأخلاق :

إذا كانت الحياة صراعا بين القوة والضعف يقى فيه الظافر ويتوارى المهزوم فالقوة باختلاف معانيها محبوبة إلى كل إنسان والضعف باختلاف معانيه مكروه عند كل إنسان . وكذلك كل ما أفاد القوة فإنه محترم محبوب وكل ما أفاد الضعف فإنه محتقر مردول . ومن الأعمال ما يكون مستحسنا ومستقبها باختلاف عمل القوة فيه وهذا السطو كان مدعاة الاعجاب فاصبح مدعاة الاحتقار وما تغير فيه إلا أدواته فقد كان يستعان له في العهد الماضي بالشجاعة والاقدام فاصبح اليوم يستعان له بالجين والندالة . فلو حللنا اسمح الخلال وأنبل السجايما لما الفيناها إلا أشارات تلمع إلى القوة من قريب

- ٤٩ -

أو بعيد . يتسم الإنسان مضطراً ليحمى بها نفسه ويمكن لها في الحياة .

فالصبر قوة . لأنه تغلب على الأمر الذي يفرق منه غير الصابرين
وعدة يتدرع بها الصابرين في الملمات .

والرحمة - وهي هنا ضد القسوة - قوة لأنها لا تكون إلا من
الأقوياء على الضعفاء ومن الوادعين على المبتلين .

والكرم قوة . لأنه علامة استغناء الرجل عن الناس بقدر احتياجهم
إليه - كما أن بذل علامة القدرة اكتسابه في كل آن .

والقناعة قوة . لأنها تدل أيضاً على استغناء الإنسان بنفسه عن
الناس .

والتواضع قوة . كأن التواضع يرى أن قدره أظهر من أن يتكلف
إظهاره بنفسه .

والعفة قوة . لأن العفيف يزجر نفسه فيصونها عن زجر الغير لها
ويراعى حقوق الناس طوعاً فيوقرها عن إكراههم له على مراعاتها .

والحلم قوة . لأن الحلم بالحلم لا يستغزه تطاول الناس كأنه أقل
من أن يؤثر على مكانته .

والحياة قوة . لأنه ينزل صاحبه منزلة الوقار ويعصمه عن المهانة
التي يلقاها أهل الوقاحة والابتدال .

التبصر قوة . لأن المتبصر يسلم بالأمر الذي لا بد منه كأنه يفعله
مختاراً قبل أن يرغم عليه .

والصفح قوة . لأنه عنوان القدرة الدائمة التي لا تمسها إساءات الناس وعدوانهم ، والتي إذا أبقت خصمها اليوم فلانها قادرة على الاقتصاص منه في أى وقت تشاء .

وسلامة الضمير قوة . لأن عدم الاحتراس من الناس يشير إلى عدم الخوف منهم كأنهم لا يستطيعون أن يصلوا بسوء إلى صاحبه والعدل قوة . لأنه مساواة بين من يخشى بأسه ويطمع في مساعدته ، وبين ما يرجى له نفع أو يخشى منه ضرر .

والصدق قوة . لأن الصادق لا يضطر كالكاذب إلى اخفاء الحقيقة رهبة من اناس أو رغبة فيهم . ويقرب من الصدق في هذا المعنى الوفاء .

والزهد قوة : ولأنه غنى سلبى عما ينكب الناس على طلبه . والورع قوة لأنه اعتصام بقوة الخالق ترفعا عن قوة المخلوقات . واحترام الضعف قوة لأن احترام الضعفاء كاحترام الأقوياء يدل على خوف القوة ليس هو الحامل على الاحترام وجميع هذه الفضائل تشترك في فضيلة أخرى وهي أنها تستجيب ثقة الناس إلى أربابها وتوقهم الصغار الذى يتلبس به الذين يشتهرون باضدادها .

على انك إذا حللت الرذيلة من وجهة أخرى لما وجدت إلا أنها اختصار الطريق إلى الغرض تماقتا من النفس وعجزا عن الصبر على تنكب المحظورات . ووجدت الفضيلة عبارة عن الوصول إلى ذلك

الغرض عن طريق كثيرة العوائق والتعاريح يدل الترامها على الجلد الاضطلاع . فيظهر مما تقدم أن الانسان لا يستطيع أن يفخر بأمر ليس للقوة نصيب منه . ولا يرغب في الانصاف بوصف إلا إذا كان فيه إظهار لقوته أو مداراة لضعفه وأنه لا يوجد إنسان مهما بلغ من الورع والتجرد ينفر من العزة ويرتاح للضعفة . وأما يختلفون في فهم معناها كل بما يصلح له .

إلى المجلس الحسيني

أيهم أحق بالحجر ؟ ذلك المسرف الذي يدفع دنائره أولاً فأولاً إلى من هو اعرف باستعمالها . أو هذا الشحيح الذي يلتقط من الثروة العامة دراهم يعدهم ثم يحرمها من الانتفاع بها طول حياته .

الغاية واللاغاية

من الناس من يرى أن الثمرة نبتت حلوة ليأكلها الإنسان ومنهم من يرى أن الإنسان أكل الثمرة لأنها حلوة . منهم من يقول أن الإنسان خلق أولاً ثم صنع العالم من أجله . ومنهم من يقول أن العالم صنع أولاً ثم خلق الإنسان منه . الأولون يعتقدون أن النجوم مصابيح الإنسان والشمس روزنامته والهواء مروحته والبحر صهريج والأرض سماطه ومناجم باطنها خزائنه وهؤلاء يعتقدون أنه من أرض العالم ومائه وهوائه وعناصره تركيب جسم الإنسان - وعلى هذا الخلاف الظاهر يدور الحجاج واللجاج بين أصحاب القصد وأصحاب الاضطرار من قديم الزمان .

الطب والشعوذة

المرض ، ألا قوتل المرض من عدو لدود العداة للانسان .
عرفنا السلاح للسباع وعرفنا كل فتاك مثله لكل عادية مثلها إلا
المرض ..

نعم نقول للطب والأطباء . ولكن هؤلاء لا يسعفون إلا في
الانحرافات التي نبالغ بتسميتها أمراضًا . أما في العلل المتمكنة التي إنما
يدعى الطيب لمثلها فهؤلاء الذين تقول عنهم - ولست أعمم -
يقفون حيارى لا يمدون يداً إلا إلى قبض الريال بعد الريال إلى أن
يكل المريض من العطاء أو يملون من الأخذ وقد يموت أقصرهما عمراً
قبل أن يسأم الآخر .

كنت أظن كل داء من المرض له دواء من الطب . وأن الطيب
إذا فاته علاج الداء فلا أقل من أن يضبط تشخيص أعراضه .

أحوجتني الضرورة إلى الأطباء وكنت أحسبني أغنى الناس عنهم
فطرقت أبواب عدة عيادات . وكنت إذا دخلت العيادة اطمأنت
جوانحي وسرى عنى ما بنفسى فأشعر بين جدرانها كاني قد لذت
بجرم الطب المقدس من أعدائي وما أعدائي إلا الآلام التي تطاردني
في الليل والنهار .

ثم أخرج منها مزوداً بنصائح في الطعام ونظام المعيشة لا أحيد عن
حرف منها . وفي يدي زجاجة أحسب أن فيها السم القاضى على
تلك الآلام . ثم لا تلبث أن تمر بضعة أيام فأراني كاني لم أستشر

- ٥٣ -

طبيباً ولم أتناول دواء . فادعوا إلى طبيب آخر يفحصنى فحصى زميله مع تنويحات وزوائد عرضية ولكنها كانت تبعض عندى الرجاء فى طبيب بعد طبيب . ثم أنصرف منه بدواء فى لونه مغاير لدواء الامس ، وآخذ فى طعام غير ذلك الطعام ، ونظام فى المعيشة غير ذلك النظام . ولكن على غير جدوى .

كنت أسمع من الواحد منهم بعد الآخر بهيئة تليق بمن كان يبيع الصحة بل الحياة بالمقدار :
أتريد أن تعرف الحقيقة ؟

إن بك ضعفاً فى المعدة والامعاء يزول بقليل من العلاج
يقول ثان : أن معدتك كأحسن ما يكون ولكن الذى تشكو منه فى الحقيقة هو فقر الدم .

ويقول ثالث : أن جسمك ليس يفتقر إلى نقطة من الدم وأنت لا يحق لك أن تشكو إلا من السوداء .

ويقول رابع : لولا اختلال الكبد وهياج الصفراء لما كنت تتألم من شيء الآن .

ويقول خامس : أن كل ما بك أن كليتيك لا تؤديان وظيفتهما تمام الأداء وليس ماعدا ذلك إلا أثر يزول بزوال ذلك المؤثر البسيط .

يقول سادس : لاتصدق شيئاً مما يقال لك . فكل أعضائك سليمة صحيحة وليس هذا الذى تشعر به إلا من مخلفات ضعف فى الجهاز التنفسى يرجى أن يزول .

وكان هذا الطبيب يقول لى : عليك بالدمسم والنشويات وذاك يقول : إياك والدمسم والنشويات . أسمع من هذا أن ادمان استعمال الأدوية مؤذ بالجوف وأن الأفضل الامتناع عن تعاطيها . وأسمع من ذلك أن ترك الداء بلا دواء قد يتخلف عنه خطر جسيم . هذا يقول : استلق على ظهرك طول يومك وابتعد عن كل ما ينه أعضاءك . ويقول لى الآخر : يجب أن تعين لك وقتًا تشغله يوميًا بالفلاحة أو تمشى على قدميك بعد كل ساعتين نصف ساعة .

طبيب ينهى عن الاستنكار من السوائل وطبيب يأمر بأن لا أتناول إلا اللبن وأن لا اتناوله إلا ممزوجا بضعفيه من ماء فيشى . إلى مثل ذلك من الوصايا المتناقضة ولو كانت هذه الوصايا موجهة إلى عشرين شخصا لما كان فى الأمر ما يدعو إلى الحيرة ولكنها موجهة لشخص واحد وهذا الشخص ليس له مع الأسف قدرة الجن على التطور بعدة أشكال فى وقت واحد .

فأريت أنى لو عملت بجميع تلك الوصايا لما ذقت طعامًا وحررت فى الأمر فلما أن أكون مصابًا بكل تلك الامراض فى آن واحد أو لا أكون مصابًا بواحد منها ووجدت إنى لو تركت نفسى لما خرجت عن تلك التجارب والتخمينات مهما تعسفت فى التوصيف والتشخيص إلا إذا افترضت الداء حالا بعض غير تلك الاعضاء التى ذكروها ولا أعلم أن جسم الإنسان يشمل على غيرها .

وبعد أن أفرغت فى جو فى صيدلية من الأجزاء والعقاقير نقطة بعد نقطة رأيت أن صناعة الصيدلة ليست أنفع بالنسبة إلى من صناعة

السقائين وأنه لا توجد صناعة لم يتقنها أربابها كصناعة الأطباء وعلمت أن التحسن البطيء الذى شعرت به لا يمكن أن يدعى علم الطب أى فضل فيه . بل ربما لم أحصل عليه إلا خلسة من الطب والأطباء .

إن هذا الخلط داء مزمن بعلم الطلب - وأقصد منه على الخصوص طب العقاقير - يجب أن يعنى الأطباء بمعالجته قبل أن يجعلوا أجسام المرضى جثا يجربون بها أصناف الأدوية والعلاجات .

عدم الاكتراث :

عدم الاكتراث لازمه من لوازم النوايغ العبقريين ، فالرجل العبرى عالمه فى نفسه . له بدوات وأطوار غير التى يألفها الناس ولكنه لا يتخلى عنها . وللناس شعائر وتقاليد يقدسونها . ولكنه لا يلتفت إليها مثله فى ذلك مثل السائح الأوربى أو الأفريقى يهبط الصين ، فإنه ينظر إلى أزياء القوم وأحوالهم بعين الاستغراب وأن كانت مألوفاً عند كل فرد غيره فى الصين . ويظل متمسكاً بعباداته وطباعه وأن هذا منها كل رجل وامرأة من أولئك الأربعمائة مليون الذين يدور عليهم سور تلك البلاد . كأنما العبرية تجعل الرجل من جنس غير الذى منه بقية البشر .

على أن عدم الاكتراث قد ينقلب إلى هنة من أحسن الهنات ، يتخلق بها من لا خلاق لهم من الاراذل والسفلة . أولئك الذين ينزلون أنفسهم فى منزلة لا يمكن أن ينزهم الناس فى أحط منها أو يخذعون الناس بظواهرهم وباطنهم على خلاف ما يظهرون .

مناقشة مع الأستاذ وجدى :

الأستاذ فريد أفندى وجدى أكبر داع من دعاة الدين فى مصر يخاطب بلسان العقل فى الدينيات . وبهذا الاعتقاد إلقى إليه هذه المسائل التى رأيت مناقشته فيها لازمة بعد أن تصفحت من دائرته الجزء السابع الذى خصصه للبحث فى إثبات وجود الله - وهما هى القىها إليه مسألة بعد أخرى :

«أولاً» انتظام العالم لا يصلح أن يتخذ دليلاً على حدوثه كما لا يصلح أن يتخذ اختلاله دليلاً على قدمه . والإنسان باعتباره زبده الكائنات سواء فى قول الخلقين أو النشوثيين لا يعقل أن يظهر فى العالم إلا بعد أن يترتب كل ما دونه فى مراتب الخلق . وسواء حدث هذا النظام بعد اختلال أو كان على هذا الوضع من أول الأزال فما كان ليأخذ مقره من العالم إلا وهو على درجة من النظام كافلة على الأقل بنشوته فيه . فمن أعلمه أن العالم الذى يضمه الآن لم يكن فى القدم «كاؤساء» كما تخيله شعراء اليونان وليت شعرى إذا كان قد وجد فى ذلك الكاؤس سائل مثلى ومسئول مثل الأستاذ وجدى وجلسا يتناقشان فى وسط تلك الهيولى كما اناقشه الآن عن آية الخلق فى العالمين فماذا عساه كان مجيباً .

«ثانياً» لا يمكننا أن نحكم على الشىء أنه متقن إلا إذا وقفنا على الغاية منه . فنحن نعرف الساعة أنها متقنة إذا علمنا أولاً أنها آلة تستعمل فى قياس الوقت ثم علمنا ثانياً أنها تؤدى هذا الغرض بالضبط .

نعرف أن المنزل مقسم تقسيما حسنا إذا علمنا أولا أنه محل معد للمأوى . ثم علمنا ثانية أنه صالح تماما لهذا الاستعمال .

قال فلتير فيما نقله عنه الاستاذ في صفحة ٤٩٩ من هذا الجزء «أنى إذا رأيت ساعة يشير عقربها إلى الأوقات المختلفة استنتج من ذلك بأن لا بد من أن يكون عقلا «هكذا» قد رتب لوالب هذه الآلة حتى استطاع العقرب أن يدل على الساعات دلالة حقيقية وكذلك زانى أن تأملت في آلات الجسم الإنسانى استنتج أن لا بد أن يكون عقلا «هكذا» قد نظم أجزائه وأجهزته وجعله قابلا لأن يفتدى فى الرحم تسعة أشهر متوالية وأنه قد متع باعين لينظر بها وبأيد ليتناول بها الخ» .

وأذكر أنى قرأت مثل هذا الكلام لروسو . ولكن روسو عكس المثل فاستدل من تركيب لوالب الساعة على أنه لا بد أن تكون وراءها غاية مقصودة . وهو استدلال مردود إذ يجب أن تعلم الغاية أولا ثم يستنتج النظام أو عدم النظام بالنسبة إليها . ولكن دعنا الآن فى كلام فلتير .

ففلتير جزم بأن الساعة صنعة عاقل لأنه تحقق أنها مقصودة لقياس الوقت . فما هى اذن تلك الغاية التى تبين له أنها مقصودة بخلق العالم ؟؟ وهل يعقل أن يحكم على شىء بأنه محكم أى أنه يؤدى الغاية منه تمام الاداء من غير أن نعرف ما هى تلك الغاية ؟؟

ثم لماذا لا نقول مثلا أن الجنين لو لم يستقر فى الرحم مدة الحمل طالما تتمتع بالحياة وأنه لو لم تتولد له أجهزة لما كان حيوانا . وأن

العين لو لم تكن بهذه الدقة لما أبصرت واليد لو لم تكن بهذا الوضع لما تناولت الخ بدلا من أن نفترض افتراض فلتير :

«ثالثا» الإحكام الشامل والتطابق التام اللذان لا بد يشيران إلى القصد مفقودان من الكون . فأين هو ذلك الشيء الذى نراه ولا نود أن يصير أكمل مما هو . فالأجرام السماوية تتصادم في كل فترة فتساقط في الفراغ ، وهذه الأرض التى نحن عليها لا شيء يمنع أن تصطدم الساعة بمذنب أو سيار تائه في الفضاء فتلحق بالأجرام التى اندثرت من قبلها . ونواميس الطبيعة تثير نكباتها وطوفاناتها وأوبقتها وحرثاتها فتدمر ما عملت فيه نواميس أخرى ملايين السنين ، ولا يتلف ما بدأ في صنعه الا من يعمل مضطرا في الحالتين وهم يقولون : أكذلك تكون أعمال المدبر المرید ؟ وهذا الكون ليس في الحاضر وما كان في وقت مضى محكما حيث موضع فيه للخلل أو كاملا حتى لا شائبة فيه للنقص ، فهو يتدرج في الرق فيسد نقصا قديما ويأخذ في تكمل جديد . ونحن نعلم العوامل التى تدفعه إلى الرق فكلها منه وإليه . فنظامه هذا البديع قد استفاده بذاته أى بعوامله ونواميسه من اختلاله ذاك . وما هذا النظام بأدل على الاعجاز من ذلك الاختلال لانهما كلاهما أثر لتلك العوامل والنواميس القسرية . وما قال أحد أن الكون انتظم اليوم لأن الله موجود أنه كان مختلا بالأمس لأنه لم يكن موجودا .

«رابعاً» إذا قيل أن الإنسان غاية الوجود كما يفهم من اعتقادهم أن أعمال الإنسان وحدها هى كل ما ينظر إليه من هذا الوجود بعد انقضائه فلماذا لم يرتب هذا العالم بحيث يوافق كل الموافقة ؟ وإذا

كان الإنسان أحقر من أن يوضع الكون حسب ما يلائمه فلماذا إذن خلقت من أجله كل هذه العوالم التي لا نهاية لها . وكيف لا يكون ذلك الشأن لمن خلق من أجله العالم الأول والعالم الأخير .

«خامساً» أن حوادث الكون كلها تطبق على عوامل ونواميس مطردة وأنه حتى الطوارئ التي تغم علينا أسبابها لا تلجئنا إلى استمداد سبب لها من خارج الكون . بل أن تعليلها بعلة طبيعية أقرب دائماً من تعليلها بعلة من وراء الطبيعة .

«سادساً» ليس في وسعنا أن نقرر أن الكون لا يكون إلا حادثاً ، إلا إذا كنا قد رأينا اكواناً أخرى مثله ثم أيقنا من حدوثها فنحن نحكم عليه الحدوث بالقياس إلى تلك الأكوان . أما وهذا كوننا لم تر قبله ولا بعده . ومنه دون سواه نستمد أحكامنا على المادة والوجود فلماذا لا يكون إلا حادثاً ولماذا لا يكون قديماً ؟ وللمعترض أن يسأل من يقول : «إن الأكوان لا تقبل القدم من طبيعتها» كم كوناً رأى وفي كم منها تحقق الحدوث ؟ كما له أن يسأل من يقول : «إن المادة لا تصدر عنها الحركات والأعمال» في أى موضع غير هذا الوجود رأى المادة محرومة من هذه الخواص ؟ فإذا كان لم ير ولن يرى فكأنه يقول أن مادة هذا الوجود لا تصدر عنها الحركات والأعمال .

«سابعاً» أننا إذا أردنا أن نسكت عن النظر والاستدلال أمام الغوامض الكونية فلنسكت عنهما بين يدي العالم والرسول على حد سواء . فلا نلحف في سؤال العالم الخاف المتعنت : كيف انفصلت الأرض عن الشمس ؟ ومتى انفصلت ؟ كأنه كان من شهود ذلك

الحدث البعيد ، ونحن نسكت عما هو أغمض من ذلك وأشد منه أشكالا أمام النبي والرسول .

«ثامنا» أن العدم تصور فاسد من تصورات الإنسان . فلا وجود إلا للوجود ولا حقيقة إلا له . فنحن نرى عدما ولا يمكن أن نرى عدما فمن أين لنا أن نتوهم غير الوجود ؟ فلا مقتضى مطلقا لتصور الوجود كائنا بعد عدم أو صائرا إلى عدم . كما أنه لا مقتضى لتصور الوجود منفصلا عن الأزليه والأبدية . وما ألم بوهم الإنسان خيال العدم إلا من هذه الاستحالات التي كانت تظهر له في بادئ عهده تارة كأنها خلق وإنشاء وتارة كأنها تلاش وفناء . وما هي في الحقيقة إلا انتقال من صورة إلى صورة الوجود ولولا ذلك لما خطر العدم في عقل ولا ورد على بال . في ولولاه لما سمعت إنسانا يسأل : «من أين جاء الوجود ولا إلى أين يصير . لأنه لا يتصرر غيره ولا يبدو له سواه» .

«تاسعا» إن الإلهيين هم المطالبون أولا بالإثبات لأنهم هم المدعون ولا يطالب الملحدون به لأنهم منكرون ليس إلا ولا يصح أن يطلب الدليل ممن ينكر قضية لم يتم على إثباتها دليل .

كذلك دحض حجة الخصم لا يفيد صحة حجة المدعى . بل كل ما يفيد أن الدعوى لم يتم برهان على بطلانها كما أنه لم يتم برهان على تأييدها .

هذه هي المسائل التي طافت بذهني وأنا أقلب صفحات الجزء السابع من دائرة معارف القرن العشرين وربما طافت كذلك بأذهان

الكثيرين فوجهتها إلى صاحب الدائرة لعله إذ يدفع هذا الإلتباس يرفع
خرطوم الوسواس الخناس عن صدور كثير من الناس .

فتح البحر :

أيا بحر لو كنت الكريم كما أدعوا قديمًا لألقيت الجواهر للناس
وحليت منها العاطلات على الحلى من اللاء لم يسعدن بالتبر والماس
ولم تدخرها كالشحيح لسارق تدلى بامراس إليها ونبراس

فاكهة النعام :

تين الصبير وقيت فا كهة الاوايد والنعام
يخلو إذا كانت جلا ميد الصخور هي الطعام

فنون الجنون :

الجنون فنون . وفنون الجنون كثيرة لمن يريد أن يحصيها لا أقصد
جنون السراى الصفراء ولا ذلك الجنون الأحق الذى يعلم عن نفسه
فى الشوارع والأسواق ويستلفت من لا يلتفت إليه بالحجارة
والصياح . كلا ! بل أقصد هذا الجنون الخلفى الذى لا يسلم إنسان
تحت قبة السماء من شعبة منه . هذا الجنون الذى يقول عنه المثل
الانكليزى «لو كان الجنون مرضًا يؤلم لسمعت الصراخ من كل بيت»
فما أكثر المجانين الذين يذهبون ويحيثون بغير جوامع فى أيديهم ولا
اغلال فى أرجلهم فى هذا البيمارستان العظيم .

الناموس الأخلاقى :

الأصل فى الأصل الأخلاقى أنه الحالة يتمنى كل إنسان أن يكون

الناس عليها ، حسب ما يبدو له أنه أضمن لعلاقاته معهم . فليست الأصول الأخلاقية بالقواعد التي تقضى المصلحة بالتمسك بها . بل كثيرا ما يجيء الأمر على عكس ذلك ولكنها القواعد التي لو جرى عليها كل إنسان لأصبح الناس كما يزعم واضعوها أسعد حالا في مجموعهم مما هم الآن .

ولكن أليس هناك فاصل بين المطلوب والحاصل ؟ ألا يجب أن تقدر درجة حكم الإنسان على نفسه فيما يتعلق بمعاملاته مع الناس ؟ أن أولئك الدعاة والوعاظ لا يرون من داع إلى بحث هذه الاعتبارات . يظنون أنه ليس بين المخطيء وبين العظمة إلا أن يعرف خطأه . كأن كل هؤلاء البغاة والأشرار ما كانوا بغاة وأشرارا إلا لأنهم لم يجدوا من يقول لهم أن ما هم فيه بغي وشر .

فمن قديم الزمان تكلم هؤلاء الناس عن الصدق والأمانة والفضيلة وقالوا لهم قوموا أصدقوا قوموا استقيموا ولكن حتى الآن لم يوجد ذلك الرجل الصادق الذي لا يكذب . والأمين الذي لا يخون والفاضل الذي لا يعرف ما يؤنبه عليه ضميره - وليس بغي الضمير من لا يسمع صوته مرة - على أنه لو وجد ذلك الرجل بين ظهرانينا لكان كمن يعامل الناس بصك يتقيد به من جانبه ولكنهم هم من جانبهم لا يتقيدون به .

وليس أولئك الدعاة والوعاظ وحدهم أصحاب مبادئ أخلاقية بل أن لكل رجل تراه مبدأ أو مبادئ من هذا القبيل . فكل رجل لا تروقه حالة الناس . وليس من رجل تروقه حالتهم ، يتمنى لو

- ٦٣ -

يكونون على غير ما هم عليه . فتسمع منهم ممن يقول : آه لو كان الناس أوفياء ليتهم لا يخافون ، ليت قلوبهم لا يقسو على ضعيفهم . ليتهم لا يبخل أغنياؤهم على فقرائهم : ليتهم لا يتباغضون . إلى غير ذلك من الأمانى التى ربما لم تكن أبعد تحقيقاً من سنن أولئك الأخلاقين .

يقولون ذلك كلما مسهم أذى من تلك النقائص التى ينقمونها من بعضهم . على أن كلا منهم ينتظر حتى يبدأ الناس بالإقلاع عنها ليقتدى بهم . وما من أحد يرضى أن يجعل نفسه مثله لغيره . وما من أحد يضع يديه فى الانشودة وهو يرى الأيدى كلها ممدودة إليه . فالناس الآن وفى كل زمان يكذبون ويمارون ويتساهلون فى الوجبات . ولا مندوحة لهم عن ذلك ما بقى بينهم هذا التدافع والتجاذب على وسائل الحياة .

الحكومة فى الشرق والغرب :

من المسائل الحرة بالنظر أن شكل الحكومة لم يكتسب شيئا من تعديلاته وأدواره فى الشرق كله . لا قديما كما كان يقع مرارا فى روما واليونان ، ولا حديثا كما وقع فى فرنسا وانكلترا من التجارب المتتابعة وراء تكوين الحكومة الصالحة . ذلك بالرغم من أن الارتباط والضغط اللذين كان يثيرانهم إلى قلب الحكومات قد نزل اضعافه بالشرقيين . ولكن مع هذا الفرق اليسير - وربما كان فيه كل السبب - أن الاستعداد لا يؤثر هنا على الأحوال المعيشية تأثيره هناك لتيسر الارزاق وقلة ما للقوانين وكيفيات الحكم من المداخلة فى تحصيلها .

وقد يكون هذا الجمود على شكل واحد من اشكال الحكومة ناشئاً من انطباع الشرقيين على قلة الاهتمام بالعموميات لتمهد الوسائل الخصوصية . فإذا استولى أحدهم على الملك استقر له الأمر وانقاد له الجميع . وكثيراً ما يتفق أن خادماً من خدم البلاط يسطر نفوذه في المملكة فيغتصب الملك لنفسه ، ويبقى الحاكم التصرف إلى أن يزحزحه عن مكانه متعصب آخر يأنس من نفسه الصولة والنفوذ . والناس بمعزل عن هذه الانقلابات ، يسلمون بها ولا يشتركون فيها ، فهي - أي حكومة الشرق - لا تركز على الشعب فلا تتحول باختلاف مصالحه ولا الشعب يعتمد على اختلاف هيئاتها . فقد أنشأت نفسها بقوة ساعدها ولم ينشئها الشعب كما هو شأن الحكومات في الغرب . وقد شددت أزرها في كثير من المواقف بالسلطة الدينية التي رأت من مصلحتها أن تتبادل واياها المعاضدة والتناصر ، فجمدت جمود عقائد الأديان في وهم الانسان .

في سالون حلاق

ما بالها تطفر كالغزال
هيفاء من أوانس الأندلس
قد أسفرت حالية بالنور
من كل زهر ناضر الرواء
ثم استوت ف مجلس هناكا
امامها المرآة فيها يظهر
تمثالها في صفحة البلسور
ساحرة بالتيه والجمال
ذات جبين كالنهار المشمس
في وجنة ومقلنة وثغر
والزهر لا ينضر في الشتاء
تمد للخلائق الشيباكا
ماليس في غير المرأى تنظر
مرتسما بريشة من نور

وكان يرعاها أريب كيس
وصوب الطرف إلى الرذيلة
كمن يهاب الشمس في السماء
فساءها حتى إلى الطف النظر
الحسن أن ضمن به الملبح
الزهر إذ يزكو لغير ناشق
فقر في موضعه لا ينبس
يرمق تلك المصورة الجميلة
فيرتضى بقرصها في الماء
اهكذا تبخل ربات الخفر
كالمال إذا يدفنه الشحيح
والبدر إذا يبدو لغير راق

* * *

فاقبلت تضحك للقربين
قالت إلا تنظر للمغرور
مازال يرنو نحوها بالطرف
فأوماً القرين للحلاق
وقال قل للحاجب الصديق
من يكثر الملح لها في الليل
عن لؤلؤ في ثغرها مكنون
يحدق في المرأة كالمسحور
حتى لقد انجمل فيها طبقى
يتسم ابتسامة الاشفاق
لا يكسر المرأة بالتحديق
قد يعتره خبل في العقل

* * *

فقال «عفوا يقرين الشمس»
«ماي المرايا ثم من شيطان
بل أن فيها ملكا مكملا
ملكته منه الذات واستأثرتنا
ودع لنا هذا الخيال مفتحا
ذاك إلا ريب منغصا بالرأس
يخاف منه المس للانسان
يوحى لنا الحسن كما تنزلا
ففرز بها مغبطا هنتسا
فانه ليس لزوج حرما»^(١)

الارتقاء ودلال النساء :

لا يرغب الرجل في المرأة في الشعوب المنحطة إلا للعلاقة التي

بين كل ذكر وأنى . فالمرأة في تلك الشعوب يهملها أن تكون مرغوبة من هذه الوجة . والدلال ومنه الحنفر والخيلاء وترطيب الكلام والتنخث والزهو باستكمال المحسنات الانثوية من قرائن تلك الرغبة والحركات لها أيضا . أما حيث تكون للمرأة مزايا تحب فيها غير هذه المزية كسلامة الذوق الحديث ودقة النظر ومشاركة الرجل في تدبير شعونه ، فالدلال من هذا النوع لا يحس إلا بقدر ما يكون طبيعيا في المرأة . فالعربيات والسودانيات أكثر دلالاً من المصريات والسوريات ، والمصريات والسوريات أكثر دلالاً من النمسيات والايطاليات والفرنسيات ، وهن أكثر دلالا من الألمانيات والأنكليزيات والأروبيات بوجه عام أكثر دلالا من الاميريكيات . وربما جاءت السوبرمان التي يبنونها بها مجردة من كل أثر من هذا الدلال .

طمأينة اليأس :

ماذا أصنع ؟

سؤال إذا ألقاه المصاب على نفسه فعجزت عن الجواب ، هان عليه المصاب . يقوله المحتضر والمقضى عليه بالاعدام ويقوله المفجوع بعظام الرزايا وفوادح الآلام . يقوله فتطرق نفسه أطراق الرضى والافتناع . بهذا السؤال «الاسفنكسي» يرقد ساكن الروح جان سيساق غداً إلى ساحة القتل . بل بهذا السؤال يترقب ذلك الجاني ساعة القضاء عليه كمن يترقب ساعة العرس ، كى يتخلص من وساوس لعل وربما . إلا أن من النفوس طائفة لا تسكت عن هذا

- ٦٧ -

السؤال في حال من الأحوال فتجيب عليه بالصدق والكذب .
بالممكن المحال . فالويل لأمثال هذه النفوس الحمقاء ! .

الحنان لعله :

الحنان اشد عطفاً من العم لأن الرجل ينافس أخاه بابنائيه ولا ينافس
أخته بهم . والعمة اشد عطفاً من الخالة لأن المرأة تنافس أختها بابنائها
ولا تنافس أخاها .

الرأى العام :

لو استطعت أن أمثل الرأى العام في صورة شخص واحد لرأيت
فيلمانياً غاشماً . هائل الجثة صعب المراس ضعيف الذاكرة . سريع
التقلب . قريب التهييج . سهل القياد . متناقض الافكار يقبل كل ما
يقال له من غير تدبر ولا امعان . والساسة والزعماء وجماعة الصحف
والاحزاب محتفون بذلك العملاق الغمر يلقونه ويصادونه فلا يكاد
يصدقهم بهذه الاذن حتى يكذبهم بتلك ، وهو تارة بهم بالبطش بهم
وتارة يضحك لهم ملء شذقيه . ولا بد أن يكون كذلك مجموعة
أفكار خليط من الناس لا يحتمل أيهم تبعه رأيه شخصياً .

هواجس ما بين القبور :

كلفنا بالحياة فما الذى أغرانا بحبها . وكرهنا الموت فلماذا
كرهناه ؟ «سؤال فيلسوف الفلاسفة وأغبيى الأغبياء سيان فى العى
عنه» . بل أن ذلك الفيلسوف - ولست اهينه - كالحىوان الابكم
والجماد الاصم سواء فى الصمت أمام هذا السؤال .

سل حجراً : لماذا يأتلف بذراته ويحتفظ بشكله . سل عن هذين

وهما مبلغ مالديه من حياة ، ثم سل من تشاء من جهابذة العلم
وأساطين المعرفة : علام أثر الحياة وكيف بدا له أن يتمسك بهذا
البقاء ؟ أنك لا تسمع منه صوتا اوضح من سكوت ذلك الجماد .

ألا اخلق بهذا الذى يدعونه تنازعا على البقاء أن يدعى سباقا إلى
الفناء . سباقا من العفاء مبتدأه ومنتهاه إلى العفاء . نحن كلنا فى ذلك
المضمار متلاحقون . السباق منا كالمسبوق والأول والآخر سواء .

فهذا المالك المطاع . الذى لا يفرض على عباده أكثر من الإيمان
إلى الغبراء برهاناً على التذلل أمام عزته . والتصاغر لدى عظمته .
دعه اليوم عزة السلطان واجبة المقام . ثم عد إليه بعد أيام . إلا ينتثر
على تلك الغبرا تراباً تمشى عليه الدواب وتطأ فوقه الأنعام ؟ .

وهذا الألعى اللبيب : الذى تتلأأ كلماته فى ظلمة الجهل تلاًأ
النور فى حلك الليل . تنافس يتيحات الدرر بأقواله تنزيهاً لها عن لفظ
هذا الأنام ونحاكى بنفائس الأعلاق معانيه اغلاء لها عن سائر الكلام
أنظره إلى أيام .. فما أقرب معدن ذلك الجواهر إلى معدن هذا الرغام
عند كيمياء الحمام .

وهذا التياه بجماله . الفتان بدلاله . الذى تهافت الابصار على لحة
إليه . وتلهب الشفاة إلى قلبه منه - امهله أيضاً إلى أيام .. ثم انظر
أين منه تحت الثرى لحاظه الساحرة . وطلعته الباهرة ووجنته الناضرة
ومراشفة العذبة الطاهرة . ألا ترى أحسن محاسنه غباراً ينفض عن
الأحذية وتصان عنه الأقدام ؟

- ٦٩ -

وذاك الكمي المغوار الذي حرم على الأسود لحمه . وسعم في ملاغم الثمور دمه . ما باله يسرح الدود منه في مكانن الشدة والعرام . وتتمكن الهوام من بدنه حيث لا يبلغ لانصل ولا حسام ؟

فما هذه الحياة لكانت الحياة حبيننا على الكره منه . ونعيش على الكره منه . وننسل فتهب أبناءنا الحياة على الكره منا ونحبها ونحن على ذلك مكرهون .

ما هذه الحياة لا كانت الحياة ؟ كلام يعجم على عقولنا ويرن صدها في أعماق ضمائرنا والموت من فوق منابر التعوش ينادينا ، بلسان يسمعه الاعجمي كالعربي ، والاصم كالسميع ، والبعيد كالقريب قائلا : «أيها الناس إن حياتكم هذه إلا احتضار طويل . تعالجون له كلما استطعتم إطالة ومدا . ولان تعجلوه اليوم قبل غدو الساعة قبل الساعة التي بعدها أخرى بكم لو كنتم تعقلون» .

نقض اللغات :

كم من كلمات على السنة الناس بلا معنى وكم من معان في أفكارهم بلا كلمات .

اقتراح

لست أدري لماذا لا تفتح حديقة الحيوانات أبوابها سحرًا في أيام من فصل الصيف والربيع . فيشاهد الزائر الطبيعة تفرك جفنيها من النعاس وهي في ثياب النوم . ويرى كيف تنهض من فراشها بين جمادها ونباتها وحيوانها . ويسمع ذلك اللحن المؤلف من زئير السباع

- ٧٠ -

وصياح الدواب وتغريد الطيور وزقاة العصافير وعزيف الصبا
وحفيف الأشجار . أيظن مدير الخديقة أنه يجبو زواره بمشهد أبدع
هذا في النهار؟؟

غشاء المدينة :

أن هذه الظواهر المدنية ليست عميقة الأثر في نفس الإنسان فإن
البواعث التي تخرجه عن هذا الطور السطحي مثل الغضب الشديد
والجنون والدفاع عن الحياة تعيده إلى استعمال أبشع وسائل العراك
الوحشي كالنهب والعض والتخديش بالأظافر لاسيما في الصغار
والنساء . والوقائع متعددة عن المجانين الذين أكلوا جوارح الأحياء ،
والمقتولين الذين أنشبوا أنيابهم في أجسام قاتليهم وقضموا من أعضائهم
ما وصل إلى افواههم ، طمعا في الخلاص .

وحش في غير لقاب :

الإنسان أشد الحيوان ضراوة . يفترس من البر والبحر والهواء وما
هو بمضطر كاضطرار الوحوش إذ ترد عنها قوارص السغب ولكن
ليتلذذ ويتفكه بتنوع الألوان واختلاف الطعام وكما أن السبع قد يغتال
فريسته من أجل نهشة من اللحم . كذلك انسانا قد يسطو على شرف
أخيه وطمأننته فيسلبها منه من أجل لذة فارغة لا يضيره الاستغناء
عنها . فالوحشية ليست في البرثن والنباب أكثر منها في الشوكة
والسكين . وليست هي في الفتك والاعتيال باقبح منها في الافك
والاحتيال .

وما في الغول والسعلاة طبع وهذا المرء من شرواه خال
وكم في الناس أن تنظر إليهم طبائع ما تراها في السالى
تربيتنا الدستورية :

إلى الآن يخيفون الأطفال في الأرياف البعيدة بالعسكري يخافون
من كل لابس الطربوش كخوفهم من العفاريت والعيلان .
التنافس سلم الرقى :

يضيق مجال التنافس في الاقطار الزراعية البحتة التي لا تعمل فيها
الصناعة فتبطيء حركة التقدم . لأن المجانسة الطبيعية في نتاج الزراعة
قد أوقفت التحسينات الصناعية عند حد محدود . ولذلك بقى فلاح
اليوم نموذجاً لا يفوته شيء من فلاح طيبة وممفيس . فالاكواخ الطينية
والمحراث الخشبي وسراج الزيت وأثواب الصوف بلونه الطبيعي على
جلود الغنم . ومنسوج الكتان الغليظ والخبر الاسمر والسلك المملح
والجين والبصل والكراث لا تزال على حالها في عهد بناء الأهرام .
وستبقى كذلك إلى أن تنشأ لنا صناعة وطنية نزاحم بها في سوق
الصناعات . هنا لك نضع أقدامنا على قاعدة ثابتة مستقرة ونأخذ
في الرقى المتواصل المطرد .

ياليل :

شمس الظلام أعالي الأكام والنور غادر طاوى الأعلام
وطغى على الأكوان بحر طام

- ٧٢ -

نامت عوالمها ورنقها الكرى والنجم نام ما فوق الثرى
والخلق بين مهموم ونيام
والليل أرحب ما يتاح لنائم ضاقت مذاهبة بهذا العالم
وطوى على كشح من الايام
ياليل عفيت الفوارق والمدى سويت ما بين الملوك ومن غدا
في حكمهم كسوامم الأنعام
ياليل أنسيت الحزين مصابه وسللت من صدر العليل عذابه
وحبوته بروائع الأحلام
كم فاز فيك المعتفون بما ارتضوا وأذقتهم طيب الرجا وقد قضوا
عهد الرجاء وما حظوا بمرام
وجمعت أهل العشق لم يتجمعوا في غفلة ممن يلوم ويمنع
بالروح دون تواصل الأجسام
لا يكتمون من الحياة ودادهم أو يعرضون وقد أذاب قوادهم
مثل الغضى من لوعة وهيام
أحييت من أردى الحمام وقتلا وبعثتهم من بعد أن صاروا إلى
رمم بوالى في الثرى وعظام
ياليل أنت أبر ما يدعو الورى رفرى على أهل المدائن والقرى
وأبسط ظلالك فوقهم بسلام
آليت أظلم من ظلامك حالكا نور يضىء إلى الشرور مسالكا
ويرى العيون خوفاى الآثام
وأعف من إنسان سوء يفسد شيطان جن فى ظلامك أسود
ما قط فارق عالم الأوهام

- ٧٣ -

ياليل فاحلل في العوالم سرمدنا إلى لا فرق للنهار إذا بدا
أشباح خلق في النهار لتمام

السعادة في وهم الناس :

يعتقد بعضهم أن السعادة أن تتوفر لدى الإنسان جميع مبتغياته
حتى لا تعود له بغية في الحياة . وأن التعاسة بأن يصغر الإنسان من
جميع حاجاته حتى لا يكون شيء من مستلزمات الحياة إلا وهو محتاج
إليه . على أنى لا أحسب هذه التعيس أحق بالانتحار من ذلك
السعيد .

احترام الضعف :

تغلب آداب احترام الشيوخ والنساء في الشعوب التي من دأبها
أو كان من دأبها الغزو وشن الغارات - وراقب ذلك في الأتراك -
كأنهم يأنفون من إظهار البأس على من لا ينتظر أن يفاخرهم ببأسه .

الانخفاض أساس الرفعة :

أعلا المراتب ما أقيم بناؤه . فوق النقائص من بنى الإنسان
وإذا بدا لك أن تشيد عاليا فاجعل أساسك 'غائر الأركان'
يشقى المماكس والمخاتل والأولى سادوا الخلائق من ذوى التيجان
لولا الغرارة في الأنام وما بهم من ذلة مرذولة وهوان

فضل الفقراء على مدينة الانسان :

أكثر الانقلابات العظيمة تمت على أيدي الفقراء لأنهم الفئة التي
ترغب دائما في تبديل ما هي عليه .

- ٧٤ -

الحجاب - خير للرجل الذى يخشى أن تصادفه امرأة فى الطريق فيفتن بها . أن يرجع إلى نفسه فيقوم طباعها ويلطف من شبقها . ذلك خير له وللعالم من أن يحكم بالسجن المؤبد على نساء العالم كله .

والمصلح الذى يتذرع بفضيل الجنسين إلى منع الأضرار التى تنجم عن اختلاطهما . كالحكومة التى توكل بكل فرد حارماً أو تجس الناس جميعاً لتمنعهم من ارتكاب الجرائم . كلاهما يضيع الغاية فى سبيل الوسطة .

أين موضع العجب :

فى جزيرة منعزلة من جزر النيل رجل إنكليزى وامرأته يقضيان الشتاء فى تلك الجزيرة ثم يبرحانها عند ظهور الصيف . وقد وضعا فى خدمتهما نحو الأربعين خادماً بين رجل وامرأة فكانوا يقصرون فى تأدية أعمالهم غالباً . فتصبح بهم السيدة غضبى «عجيباً أربعون شخصاً يعجزون عن خدمة اثنين!»

نعم عجيب أن ينفق رجل وامرأة على مالا يكاد يفى بتهيئة معدات أكلهما وسكنهما فى المشتى . ما يكفى للانفاق على أربعين عائلة فى كافة لوازمها!»

آداب المجاملة :

الصراحة - أى إظهار شعور النفس فى حقيقته - خلق فطرى فى الإنسان . ولكن الرياء والمواربة والنفاق والمجاملة مستحدثات

متصنعة أوجدها تداول الحاجة بين الناس . ففي القرى حيث تقتصر حاجة كل إنسان على ساعده ترى الغلاظة والخشونة في الكلام وتراهم أبعد ما يكون في حديثهم عن الكياسة والتزويق وكذلك بين النساء الجاهلات بالحاجات المعنوية في العشرة والمسامرة وتبادل العواطف . فان الصراحة عندهن على أتمها لأنه قل أن توجد بينهن امرأة تحتاج في مؤنتها إلى امرأة أخرى . لاعتمادهن جميعاً من هذه الوجهة على الرجال .

ومتى ازدهمت الأعمال بتقدم العمران واعتمد كل عامل في عمله على ذاته ، قلت كذلك المجاملات الفارغة واقتصر الناس من الكلام على الضروري المفيد ونبذوا اللغو والهذر .

وربما كانت هذه الجفوة التي عرف بها العنصر السكسوني في ألمانيا وأميركا وانكلترا من لزائم الاعتماد على النفس واستقلال الفكر وهما الخلقان اللذان امتاز بها أبناء هذا العنصر بين عناصر البشر كما يمكن أن نرجع بهذه المجاملة المستسمنة بيننا إلى عدم استقلالنا والتعويل على غيرنا قبل أنفسنا في قضاء حوائجنا .

محك المعجزات :

للفيلسوف الانكليزي دافيد هيوم ميزان دقيق يزن به المعجزات . قال في بعض فصوله ما معناه : إذا أخبرك رجل عن معجزة فانظر إن كان تكذيب ذلك الرجل مستحيلاً أبعد من استحالة وقوع تلك المعجزة فصدقه

فمثلا إذا جاءك رجل وقال أنه رأى الشمس تطلع من الغرب بعد نصف الليل . فاذا كان وقوع ذلك الأمر الخارق أقرب إلى الاحتمال من كذب رجل أو مائة رجل مثله أو ألف أو مليون فصدق المعجزة وإلا فاقطع فانها ملفقة .

حقيقة الشعور بجمال التصوير :

في استحسنانا للصور^(١) شيء من الاعجاب الخفى باتقان المصور . فيتفاوت اعجاب الناظر على حسب الدرجة التي يقدرها للاتقان في نظره . فصاحب الذوق الساذج يكتفى بتخطيط «كروكي» عن مجمل الشكل المرسوم . فلا يطالب الرسام إذا رسم رجلا بأكثر من أن يأتي به كاملا لا ينقص عضواً من أعضائه . فيبحث عن الرأس والعين والأنف والاذن الخ هل لها علامة ظاهرة في الرسم أم لا ثم لا يعنى بمضاهاتها على الاصل . يطلب منه رجلا لا يلبس عليه بالقرود أو جملا لا يلبس بالزرافة .

ذلك اننا تعودنا ان نعجب دائما بالصانع في صنعته على قدر ما استلزمته من الحدق والقدرة . وعلى قدر مالدينا من ادراك ذلك الحدق وتلك القدرة . فنحن تروقنا صورة اليد أكثر من الصورة الشمسية وان كانت هذه في الواقع اضبط من الاولى وادق منها انطباقا

(١) عنيت بالصور هنا . الصور مجردة عما تنقله من احساس اصحابها لان هذا في الحقيقة غير ذات التصوير . وقدمت الاتقان في العمل على مغزاه لانه الامر المطلوب اولا وبدونه لا يعد العمل تاما . فالانحرس الذي يفهمنا آلامه باشاراته لا نعدده خطيئا مؤثرا . وكذلك المصور الذي نفهم مغزى صورته بالرغم من خلل تصويره لا نعدده مصورا .

على الأصل . إلا أن استخراجها ليس فيه ما يشبع حاسة الغرابة .
لانه لا يشف عن البراعة التي يشف عنها استخراج الاولى . ولو كان
للإعجاب بالصور سبب غير هذا السبب لكانت الثانية أولى
باعجابنا .

اعمار الموقى :

قلت هذه الأبيات على قبر صديق زرتة بعد عام وقد مات في
التاسعة عشرة .

من القبور حسبنا	قد مرَّ عام واننا
تحت التراب بلغنا	اليوم عشرين عامًا
في عمر من بات ميتا	سيان يوم وجيل

بنات اوربا على الإبل^(١)

قل للحسان على المطى رواكضًا	رفقًا بأعناق المطى قليلا
لا يرتكضن فهن في اقصى المدى	ادنى لاعماق النفوس مثولا
حسب الحسان من القلوب رواقلا	اما خفقن وحسبن ذميلا

تقسيم التركات :

إذا مات رجل عن مائة ألف جنيه وخلف وراءه ابنا . فكيف
يحق لهذا الابن الاستيلاء على جميع هذا المبلغ ؟ وبأى مسوغ يستحل
ذلك الولد هذا المقدار من ثروة الأمة ؟
نعم أن على الوالد ان يربى ولده . وله أيضا ان يعينه على انشاء

(١) قلت في سياق لسيدات على الجمال .

مستقبل له في الحياة . فليكن الامر كذلك فليس في هذا نزاع . فإذا ما مات ذلك الأب فلتقم الحكومة مقامه وتتولى تربية ولده وتمده متى حان له أن يعمل لنفسه بما يبدأ به عملا من الأعمال . ولتتركه بعد ذلك يلاقى ما يستحقه بجدارته من نجاح أو فشل وتنفق الباقي في تحسين حال المجموع بما لا يمكن أن يأتي على يد فرد من الأفراد .
محادثة مع أخى الصغير . أمام البنك المصرى :

قرأ الغلام على لوحة المصرف الكبير
« ا ل ب ن ك . ا ل م ص ر ي » فصاح بى : أهذا محل البنك ؟؟
قلت : نعم ، أنه هو محله
قال : أين هو إذن ؟؟
قلت : هذا البيت الذى تراه أمامك .

قال : لقد كنت أسمع الناس يقولون - أخذت من البنك - البنك - أعطانى - البنك يطلب من فلان - فاحسب أنه رجل كبير كثير الأموال - يجلس فى محله وينفخ الناس بالنقود كما يطلبون .

قلت : أنه لكذلك ، رجل أو رجال كبيرون . لا بالجسم الضخم ولا بالشعر الأبيض ولكن بالذهب . وهم كما حسبت . ينفخون من تسمعهم من التجار وأصحاب المزارع والعقار بالنقود إلا أنهم لا يطبقون كلفة الجلوس ومد اليد بالفلوس ، فهم ينامون هناك على أسرعتهم ويعثون جنباتهم تدور وتنحدر من يد إلى يد ومن كيس إلى كيس . ثم تعود أيديهم وأكياسهم فى آخر الدورة أضعافاً مضاعفة .

قال : وإلى أراهم يزنون الجنيهات والريالات فى الموازين فبكم يا ترى يبيعون الأقة ؟؟

قلت : إنهم يبيعون الدرهم بدرهمين .

قال : وهؤلاء الصيارفة والبوابون الذين يزنونها ويصفونها ويحملونها . ألا أحسبهم أسعد العمال حالا وأكثرهم مرتبات وأجورا .

قلت : كلا بل هم فى ذلك عمال كبقية العمال .

قال : فكم أجرة هذا البواب .

قلت : كأجرة ذلك البواب .

قال : وهذا العامل .

قلت : كذلك العامل .

قال : عجبا! أعامل البنك وهو لا يقلب يديه إلا فى الذهب والفضة يأخذه عامل الأوراق والمحابر والأقلام ؟؟

قلت : أى نعم : كذلك قضى الناس : أن يكون أقلهم حظا من المال أكثرهم اشتغالا فيه .

قال : إننا نحن الأطفال بمثل ذلك فى ألعابنا .

قلت : ولكننا نحن الرجال ذوى الشوارب واللحى نرضاه فى شراعتنا وأعمالنا فماذا تقول ؟؟

فبهت الغلام وألقى بكرته أمامه ثم عدا فى أثرها !! .

أين الحقيقة :

أين الحقيقة ؟؟ لاحقياً
الناس غرق في الهوى
إن الحقيقة عادة
كل يهيم بها فسان
كم أشرق الحق الصر
والناس لو تدرى خفا
لاحق إلا أنه
قمة كل ما زعموا كلام
لم ينج غر أو امام
كالغيد يضرها اللثام
لاحت لهم صدوا وهاموا
اح فاعرضت عنه الأنام
فيش يروق لها الظلام
لاحق في الدنيا يرام

ولما نشرت هذه الأبيات في الجريدة نشر كاتب في العدد ٣٣٦٠
من اللواء مقالا افتتاحياً تحت عنوان «يرون الحقيقة ويمارون فيها» قال
منه «إن الذين ينحرفون عن طريق الحقيقة لم يضلوه ولو شاؤوا
لاستقاموا فيه . ولكنهم لا يشاؤون فالخيلة فيهم قليلة .

مثلهم مثل من يجعل بينك وبين الشمس يده إذا تعالت في السماء
ليحجب عنك نورها وهو يدرى بأنه لا يحتجب فالويل لهم من
أنفسهم والويل لطلاب الحقيقة منهم .

نعم أن الحقيقة لا تدرك بين الذين أشربوا في نفوسهم هذه الطباع
ولكنها غير مجهولة . ولا خافية . وهل يخفى النور على بصير وقد
ضمن مقاله أبياتاً بهذا المعنى .

فقد ظن الكاتب إلى أنكرت الحقيقة مطلقاً . وليس هذا مرادى ،
فالحقائق من صنف (٢ × ٢ = ٤) كثيرة لا تحصر ولا تنكر . ولكن

- ٨١ -

الحقيقة التي عنيتها ليست من طراز هذه الحقائق . فهي الحقيقة الكبرى . الحقيقة الشاملة التي ينضوى تحتها كل ماعداها من حقائق ، فمن هو ذاك الذي يحسب الكاتب أنه يعرف هذه الحقيقة ويمارى فيها ؟ تلك أكبر من أن يعرفها أحد فيكتمها . بل تلك أسطع من أن يقابلها بصر إنسان .

خلود الفنون :

تساوى الآن أرباب القرائح والفنون . فلم يعد الشاعر ينفرد بتخليد ثمرات قريحته عن زميليه المصور والمغنى - فبواسطة التصوير الشمسى الملون أصبحت الصورة تنقل من قرن إلى قرن من غير أن يذهب تقادم العهد برونقها . وبالفونوغراف والأنواط الموسيقية أصبح في الإمكان حفظ أصوات المغنيين وألحان الموسيقين مئات السنين بعد أن كانت تخرج من بين شفاههم فيلاشيها الهواء .

نقد الكتب :

يحسن بالقارىء أن يعيد تصفح الكتب التي يقرأها مرة في كل ثلاث سنين على الأكثر . فإنه يضاعف انتفاعه بها ولا تفوته طلاوة الجديد فانها تتغير في نظره حتى لقد يظهر له كأنه يقرأها للمرة الأولى فيرى في معانيها ودقائقها ما كان لا ينتبه إليه من قبل كما يبدو له من ما أخذها وأغلاظها ما كان يخفى عليه . وربما تغير حكمة عنها إلى نقيضه فيروقه ما كان يرفضه ويرفض ما كان يروقه مترقياً مع ارتقاء معلوماته .

وباعادة تلاوة الكتاب في ظروف مختلفة بتجرد القارئ عن تأثير الظروف عليه في قراءته ويتخلص إلى المعنى المقصود .

اسحار أيار

نشرت هذه الأرجوزة في العدد ٩٧٦ من الجريدة الصادرة في يوم ٢٦ مايو سنة ١٩١٠ :

قد أقبل الربيع	بنشره يضسوع
فقات الزهور	وصاحت الطيور
حديثها تلحين	ولحنها شجون
سجينة فطرية	من قدرة سرية
ماركبت مزمارًا	أو هذبت أوتارًا

* * *

الورد في البستان	يميل بالأغصان
يسطو بلون الأفق	عند احمرار الشفق
كأنه الخدود	تهفو بها القدود

* * *

والفل في الرياض	كالحدق المراض
يرنو بجلظ فاتر	لكل وجه زائر
مختلف الأوراق	مزدوج الطباق
كنجمة الصباح	تهم بالسروح
يامن جفاه الوسن	وحالفتسه المحن

- ٨٣ -

أزرت به العيون وملته القريبن
الفل طرف أحور لكل وجه ينظر
لا يغمض الدلال منه ولا الملل
يرمز للعفاف بلونه الشفاف

* * *

والنرجس الجميل وأقصده النحول
ما باله قد أطرقا لا يستقيم مطلقا
كالتابع المطيع في حضرة المتبوع
أم أبصر الزهورا فارتد مستطيراً
وعاذ بالرحمن من فتنة الحسان
كالناسك المعتزل عن دهره في شغل
ماجال قط بالبصر في حسن ربات الخفر
قد أنكر الجمالا بحسبه ضلالا
كأن من سواه ليس هو الإله

* * *

وفاح مثل المنديل من جانب القرنفل
ياسيد البهار وحليسة الأبيكار
أدميت في التقليد أنيملات الغيسد
طيات ثوب الغانية ماعنك إلا راوية
مسنسن الحوافي في ورق لطاف
تخالها في الشكل مثل ثنابا الطفل

- ٨٤ -

ضاحكة للآم ناغته بعد ضم

* * *

مبيضة النواحي	ودارت الأفاحي
دارت عليها الراح	كأنها الملاح
واقترت الثغور	فاهتزت الخصور
جدلانه لا تسأم	يا ألف ثغر ييسم
والطيب عنها يعرف	الشهد منها يرشف
أو يعبس الجبين	كيف يرى الخزين
بوجهك المليح	في محضر صبح

* * *

كالبدر حين يسفر	وأشرق النيلوفر ^(١)
في الصبح والمساء	يخسرو إلى ذكاء
في هيكل الجوس	كالراهب الحبيس
والنسك والصيام	أنلفه القيسام
من نخشية المعبود	فاصفر كالفؤود

* * *

كأنسه السدرور	وانتشر المشور
ووشية مختلف	طرازه مؤتلف
أو خيط نور في قدح	كأنه قوس قزح

(١) عباد الشمس .

- ٨٥ -

أو لعب الأزاهر في موسم المساخسر
بالسورق الملون من كل صبح متقن
فالأحر الخضيب والأصفر المشوب
والواضح المحمر كالثغر إذ يفتسر
شفاهة لا تطبق يا حسنها لو تنطق

* * *

والنيل يجرى ساكنًا كالشيخ يسرى واهنًا
يحدث النجوم ما حديثه القديما
قد أقبلت عليه وجملت إليه
وراق للنسيم ما راق للنجوم
فأمسك الأنفاسا وأنصت اختلاسا

* * *

والبدر في سماء يسبح في السناء
مجرد الأهباب في ذلك العباب
ولاح نجم هالي مشمر الأذيال
يعمل في السديجور كالخنجر المشهور
فانقض زنجي الدجي في دمه مضرجا
وأقبل النهار يحفه الأكبار

* * *

يأبها النينام قد أدبر الظلام
الماء والهواء والأرض السماء

والعشب والنوار والسطير والأشجار
والحوت في البحار والوحش في القفار
تهض للبكسور قبل انبثاق النور
فما لهذا المنام من عنصر ابن آدم
قد هالف الطبيعة في هذه الشريعة
مذ جعل القنديلا عن شمسه بديلا

* * *

لو أنصف الزمان وأسف الامكان
ما أشرق النهار أو دارت الأدوار
إلا على الريح وزهره البديع

الانعطاف :

السر كل انعطاف استحضار العاطف حال المعطوف عليه
استحضاراً تنبه معه في النفس حاستها في مثل تلك الحال .
فالمرأة أعطف على المرأة من الرجل لأنها أخبر بخبايا نفسها
واختلاجات قلبها .
والمرزو يرثي للمرزوء أكثر من الخلى لأنه لأقرب منه إلى فهم حاله
والاستشعار برزئه .

وسرعة الخاطر ملازمة لشدة التأثر لأن سريع الخاطر أسرع من
غيره إلى لحظ المشابهات البعيدة بين شكايات الناس وشكايته . ومن
أهل هذا الخاطر السريع من تبلغ به قوة الاستحضار أن يستحضر

أمراً مضي فيضحك أو يبكي كما لو كان الأمر قد وقع له فعلا في ذلك الحين . وأصحاب هذا المزاج هم الذين ينسون أنفسهم في غمار الناس ويتسلبون عن ذواتهم في وسط الجماعة ، فيغلب عليهم ضعف الإرادة لأنهم لا يملكون اطمأناتهم الداخلى أمام المؤثرات المتناقضة . ولا تأتي أعمال هؤلاء إلا إذا كانوا فيها ملاحظين أو منفذين لا مدبرين ولا مديرين . أما الأعمال التى تحتاج إلى حضور الذهن واستقلال الحكم وعدم الانقياد إلى مؤثرات الوسط . كالقضاء والسياسة وإدارة الأشغال فهم لا يبرزون فيها بتاتا .

والشفقة عند القبائل المتبريرة مرادفة تقريبا لمعنى الجبن لأنها بهذه المثابة عبارة عن خوف على النفس من طريق الخوف على الغير وكذلك الغلاظة عندهم مرادفه معنى البأس والصلابة .
هذا باعث الرحمة ، وهذا أيضا باعث الضمير

فالرحمة ليست إذن حيلة اخترعها الضعفاء لمصلحتهم كما افترض النيتشيون . ولكنها طبيعة من طبائع الإنسان ، والفرق فيها بينه وبين الحيوان فرق بين دماغ ودماغ . فذهن الانسان لارتقاء تركيبه يأخذ الشبيه بالشبيه وذلك ما يصل إليه الحيوان .

شعر حافظ :

يعجبني من حافظ جلاله في شعره . يعجبني منه ذلك الجلال وإن كنت أعتقد أن الجلال الظاهر لا يتطلب من شعرائه سموا في المشاعر أو أفضلية لها على شعراء الجمال . فعندى أن إدراك الجمال ينبغى

له تهذيب في النفس ودقة في الذوق لا تكتسبان إلا مع العلم ومعاناة
ثمرات الفنون ، ذلك إلى استقامة الفطرة وسلامة الطبع . وليس
كذلك الجلال فإنه لقوته الضاغطة على الحواس يضطر النفس إلى
الشعور به قسرًا ما دامت على استعداد له ، ويندر أن تعرى نفس
عن استعداد للشعور بالجلال .

وتعجبني منه موسيقيته في شعره يوقع لك النغم ثم يتركك تغنى
على ليلاك . ومن الشعراء من تجدهم كأحداث الرسامين يرسم لك
الشجرة فلا يترك ورقة من أوراقها . ويلقى إليك بقصة فيقررها كما
يقرر الشاهد شهادته أمام القاضي . أولئك ككتاب الهيروجليفي
يصورون لك شكلا ما هم عاجزون عن تصويره معنى والأمرى يتراءى
له كأنه تلك التصاوير أحكم من الحروف تمثيلا وأوضح منها
مدلولا .

وأما فيما عدا ذلك فشر حافظ كما قال فيه الدكتور شميل ولم
يرد أن يطريه « كالبنيان المرصوص متين لا نجد فيه متهدماً » فهو يعتمد
في تعبيره على مائة التركيب وجودة الأسلوب أكثر مما يعتقد على
الابتداع أو الخيال .

نوبة الخفقان :

إذا كان قلبى بين جنبى مضمرا
لى الغدر لم أرهب القلب أمرى غدرا
إذا دق لا أدرى أتبع بعدها
له دقة أم أنها الدقة الأخرى

الألياذة :

أضاع البستاني أعوامًا في تعريب الألياذة لو قضاها أو بعضًا منها في تعريب نخبة من أسفار الحكمة الغربية لكان ذلك خيرًا للعربية وقرائها من نقل كل ملاحم الأقدمين إليها . نقل إلينا تلك الملحمة الضخمة التي تشتم عنجهيات البدو وجلافات القبائل في كل قصيدة من قصائدها ؟ على حين بدأ الأوروبيون أنفسهم يمجونها ويزهدون فيها . وما كانت تطرب إليها نفوسهم في عهد من العهود ولكنهم يقلدون في الإعجاب بها بعضهم بعضًا . فيكتب النقاد في تقريظها ويرغم القراء بوقائعها وأناشيدها وكلهم يظن أن غيره أعلم منه بسر ذلك الإعجاب المستولى على الجميع وكلهم في الحقيقة سواء في جهل ذلك السر وما جعل للألياذة هذه القيمة بين كتب الأدب المعدودة في لغات الغربيين إلا أنها الكتاب الوحيد الذي بقى لجامعات أوروبا جيلًا بعد جيل تدرس فيه بلاغة اليونانية وقواعد شعرها القديم . فكان يتلوها منهم كل كاتب قبل أن يكتب وكل شاعر قبل أن يشعر ويعتبرونها كما يعتبرون سفرًا يدرس في الجامعات ثم يتشددون ويتفهبون بها تفهيق عارف اللسان المجهول وقارئ الكتاب النادر . ولقد فقدت هذه القيمة بترجمتها إلى اللغة العربية ، فلم يبق فيها إلا تلك السخافات والحماسيات التي لا أشبهها إلا بوقائع سيف بن ذي يزن وأبي الهلالى مما يقرأه كل منا في حديثه ولكن الوهم قد صيرنا لا نجرؤ على النطق بأسمائها كما صيرهم الوهم يشيدون بذكر الياذتهم وينصبون ناظمها المستر ملكًا على الشعراء .

الرشوة :

فشت الرشوة والصنيعة في الشرق لأن الشرق عس الاستبداد والرشوة والصنيعة تفشوان حيث تنطلق يدا الحاكم بلا مراجعة ولا تعقيب فلا مناص للشاكين والطالبين من استرضائه والاحتواء به . أما حيث تنحصر سلطة الحاكم في تطبيق أحكام القانون فانها يمتنعان إلا بقدر ما يفضل بعد تنفيذ السلطة العمومية من سلطة يكتسبها الموظف لشخصه .

الطريقة الإنشائية :

العناية يتميق الألفاظ عيب الطريقة الإنشائية وحسنها في آن واحد ، وهي عيبها لأن المبالغة في العناية بالألفاظ من طبيعتها أن تصرف صاحبها عن تحرى المعاني والتثبت من الحقائق . وهي حسننها لأن هذه العناية من طبيعتها أن تغزر مادة الكاتب اللفظية فتتوارد الكلمات على سن قلمه بلا تعمل أو كلفة فيجرى قلمه في الكتابة جرى لسانه بالكلام . وحقق ذلك العيب وهذه الحسنة في كتابات جماعة الإنشائيين من كتاب الجيل الماضي وأعنى بهم أمثال الطويراقي وعبد الله نديم والشدياق واللقاني وأديب إسحاق وإبراهيم المويلحي وإضرابهم من زعماء الطريقة الإنشائية .

وحدة الحكومة :

لا أرى لماذا يخطر للأكثرين أن الجامعة الإنسانية تقتضى وحدة الحكومة . فليس ما يساعد على هذه الخاطر اليوم ، وربما كانت الحكومات المستقلة غدا أكثر منها اليوم عددًا . فلا أهمية البتة لوحدة

الحكومة في تكون الجامعة الإنسانية ويكفى أن الأمم سوف تساس في المستقبل طبقاً لنظريات مشتركة في الحكم وتجري على وتيرة واحدة في أوضاع العمران . ذلك أدعى إلى التقارب والتآخي من اشتراكها في أشخاص الرؤساء الذين يحكمونها . ومتى وصلت الأمم إلى مستوى واحد في الأفكار والنظامات فما أغناها إذ ذلك عن الانضمام تحت قطعة واحدة من القماش .

القضاء والقدرة في الطبيعة :

ليس لنا في أعمالنا اختيار حقيقي بالمعنى المراد من الاختيار بل أن اختيارنا نفسه نتيجة أعمال اضطرارية تقوم بها وظائف الجسم . ومن ذلك يتبين مقدار ما في قول القائلين برفع القصاص عن فاقد الاختيار من الوجاهة أو عدم الوجاهة في بعض الظروف .

كلنا ننطوي :

أينعي يازهور	واهتفي يا طيور
والعبي واطيرى	يا بنات الغدير
وانشرى يا صيبا	نافجات العبير
واخطرى سحرة	بين نور ونور
واسعى في الدجى	ساعة يابدور
ساعة تنقضى	في دهور تدور
كلنا للردى	والبرايا غرور
كلنا ينطوى	في ظلام القبور

السعادة

السعيد من لا يفكر بالسعادة .

حرم الأوهام

الخيالات الشعرية والأساطير الدينية ، مستطابة في موضعها محترمة
مادامت في كسر دارها ، ولكنها متى تعدت مرة منطقة وخاطرت
بنفسها إلى منطقة الحقائق ، فعقابها هناك الإعدام ودمها هدر .
كذلك حمام الحرم . فمن أرادها فليطلبها في موطنها ولا يخرج بها منه
فيجنى عليها وعلى نفسه بهذه الغربة المميتة .

عرض الحياة

ترى من سيرة الجانب الأكبر من الناس في حياتهم كأنهم يخالون
أنهم دعوا في العالم إلى وليمة يأكلون فيها ويشربون ويقصفون ويطربون
ثم ينصرفون في آخر الليل ليناموا : لعمري إذا كان هذا هو الغرض
من كل حياتنا هذه فما أحقر ما يفوتنا بالموت من حياتنا . وما أشد
ما ظلمنا الموت بهذه البغضاء .

سائلو بطرس باشا :

ليت شعري ماذا كان يعنى شوق بك بقوله على قبر بطرس باشا :

القوم حولك يابن غالى خشع	يقضون حقًا واجبًا وذماما
يتسابقون إلى ثراك كأنه	ناديك في عهد الحياة زحامًا
يكون موثلهم وكيف رجائهم	والأريحي المفضل المقداما

أكان يريد أن يقول أن زائري قبر الرجل وفيهم ساداته الأمراء
الوزراء والعظماء والعلماء . وفيهم نائب مولاه الأمير ووكلاء الدول
أكابر السراة والوجهاء . أكان يريد أن يقول أن هؤلاء كلهم ممن
كانوا يقصدون من نادى ابن غالى موثلاً وكهف رجاء يستعطفون
من أريحية ساكنة الجواد ويستدرون من أفضاله ؟ أم أراد أن يقول
كما قال الناس في هذا المعنى فاختطاً التقليد ؟ أم لعله كان لا يريد
أن يقول شيئاً ؟ أم تراه يحسب أنهم ملكوا عليه حتى دموع عينيه
أنه نائحة المعية أعيد ليرثي كل من يموت من خدامها بلا مقابل ؟

الحر والخصب ينميان الأديان كنا ينميان الأغصان :

الحر والخصب كلاهما طبعاً الشرق على الكسل وقلة العمل وكلا
هذين من دأبة أن يطلق للفكر عنان التصور والخيال . ويغري النفس
الاسترسال في الأمانى والآمال . فالشرق من قديم الأزمان مهد
لأديان ومهبط وحي الوجدان . وليت شعري إذا لم تكن العقائد
من نتاج الخيال . فعلام لا ينشأ إلا في الشرق أمثال برهما وبوذا
وكونفشيوس وزردشت وموسى وعيسى ومحمد وسواهم من الأنبياء
وواضعى الديانات ؟
ابن حمديس :

شاعر صدت عنه الشهرة بعد أن أقبلت عليه ، وطواه الخمول
بعد أن طبق ذكره الآفاق .

فلقد نسي الرجل بعد أن ذاع اسمه في العالم العربى ، فكان ينشد
له في قرطبة ومراكش وصقلية ومسينى وبغداد . استدعاه المعتمد ابر

عباد من قرطبة إلى أشبيلية وكان قد اجتباه فلم يزل صديقه ملكا وأسيرًا ، وذكره أكثر أصحاب التراجم والسير فأشار إليه ابن الخطيب في نفح الطيب ، وشهاب الدين العمري في مسالك الألبصار ، وعماد الدين الأصفهاني في جريدة القصر وجريدة العصر ، وابن القطاع في الدررة الخطيرة والمختار من شعراء الجزيرة وذكره هذا أيضًا في طبقات الشعراء ، وأبو الصلت بن أمية الأندلسي في الحديقة ، وحاجي خليفة في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، وابن بشر بن الصقلي في المختار في النظم والنثر ، وابن بسام ولا أذكر أين نقله ابن خلكان في وفيات الأعيان . ونقل له بعض هؤلاء عن بعض ، وأطنبوا الثناء عليه بما عرفوا من قدره . ولكن وافق بعده أن اضمحلت دولة العرب في المغرب وانقرضت لغتهم من تلك الأمصار فضرب النسيان على اسمه مع ما ضرب عليه من معالم مدنيّتهم هناك .

ولكن هذا الشاعر المجهول قد زاد بديوانه على ثروة اللغة العربية ذخيرة أضاعها التفريط وأودع ألفاظها من المعاني ما لم يضمها إليها شاعر عربي آخر . ولقد كان ينبغي أن لا نذكر المتنبي والبحرّي وابن أبي حفصة وابن هانيء وغير هؤلاء من محترفي الشعر ، كان ينبغي أن لا نذكرهم مرة إلا ذكرنا ابن حمديس مرارًا . هذا الذي لا يذكره قراء العربية إلا كما يذكرون شعراء الفرس والصين ولولا «ابن» قبل حمديس لما درى أكثرنا ان كان اسم رجل أو اسم مكان . ولم يأت واحد ممن أشاروا إليه ولا على طرف من سيرته ولا

بينوا مسقط رأسه وتفصيل نشأته ولعلمهم كانوا يجهلون ذلك أو لعلمهم لم يستقصوه كعادتهم في إيراد التراجم . فكل ما عرفته من أمره بعد أن تصفحت ما عثرت عليه من المصنفات التي ورد فيها اسمه أنه وفد على المعتمد بن عباد سنة احدى وسبعين وأربعمائة وفي تلك السنة رحل إلى أفريقية وصحب العرب وأن له كتاب الجزيرة الخضراء من بلد أندلس ، وقال ابن بشرون أن والده عبد الجبار كان شاعراً وفضله على أبيه . وقد اتفق أكثر من واحد على أنه قضى نحبه في سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، وقال بعضهم كان ذلك في شهر رمضان من تلك السنة وأنه توفي في جزيرة ميورقة وقيل يبجاية ودفن إلى جنب ابن اللبانة الشاعر المشهور وزعم أنه قد عمى في أواخر أيامه - ويظهر من قصيدته في المصا التي يقول فيها :

كأنا وهي في كنفى أهش بها على الثمانين عامًا على غنمى
ومن قوله في موضع آخر :

ثمانون عامًا عشتها ووجدتها تهدم ما تبني وتخفص ما تعلقى
أنه قد بلغ الثمانين أو ناف عليها فيكون قد ولد حوالى سنة سبع وأربعين وأربعمائة وأنه قد صار شاعراً تقربه الخلفاء في نحو العشرين من عمره .

طبع ديوانه بروما طبعة غالية من نسخة نقلها زكريا بن خضر بن على بن طاهر البقاعى ثم اللبناى ثم الدمشقى، وفرغ من كتابتها في شهر ذى القعدة سنة ست بعد الألف . واسمه في نسخة من ديوان عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الصقلى السرقوسى ،

ويدعوه بعض الرواة أبا محمد عبد الجبار ولعلها كنية ومنهم من ينسبه إلى الأزدي .

أما الديوان فجيد أكثره لا سيما ما كان منه وصفاً أو نسيباً صانه الإهمال عن الابتدال فلم تبهت له من القدم طلية ، وله سرقات عن بعض شعراء المشاركة ولكنها سرقات ظاهرة أو هي سرقات أمام العين كما يقولون . أما فهمه للشعر فيختلف عما كان يفهمه منه قدماء الشعراء فقد تلوّق كنه الشعر ونفذ إلى روح الألهام ، فمن قوله في الشعر .

ووجدت علم الشعر أخفى من هوى
لم تفشه عين لسعين رقيب

وقال في معرض آخر :
وإذا أردت بأن تصور للمنى
صوراً فسلمها لفكرة شاعر

شعره وجداني لا صناعي ، فهو براء من المديح المتكلف والوصف المدعي ، ولذلك تعرف من الشعر من هو الشاعر ، فكان الرجل عفيف اللسان يترفع عن الفحش والمقال القبيح كما قال :

إني امرؤ لا ترى لساني منظماً ما حيت هجوا
وكان سليم الطبع جليل القدر ، فكان يرتاح المعتمد بن عباد إلى بث شكايته إليه ويجذ سلوة في مراسلته بعد أن نفى إلى أغمات فيجيبه الشاعر بما يفعل بنفسه فعل المرهم بالجرح النغار .

أنظر كيف يمدح عن سرور قلبي بالعمل وإعجاب صحيح

بالممدوح . قال يمدح أبا الحسن على بن يحيى ويذكر رده أهل سفاقس
إلى أوطانهم :

يا يوم مرجعهم إلى أوطانهم أرجعت أرواحا إلى أبدان
نزلت بك الأفراح في عرصاتهم وبها يكون ترحل الأحزان
فلذات القلوب إلى القلوب تراجعت
في ملتقى الآباء بالولدان

والأمهات على البنات عواطف
سر القرابة بالقرابة منهم
وتزاور الأحياب بعد قطعة
في كل بيت نعمة ومسرة
ودعاؤهم لك في السماء مخلق
كحجيج مكة في ارتفاع عجيجهم
صيرت في الدنيا حديثك فيهم
فخر يقيم إلى القيامة ذكره

والمشفقات على اللدات حوان
وتأس الجيران بالجيران
دخلت بذكر الود في النسيان
شربوا سلاقتها بلا كيسان
حتى لضايق بعرضه الأفقان
وطوافهم بالبيت ذي الأركان
مثلا يمر بأهل كل زمان
مثل الشنوف تناط بالأذان

وقال يرثي جارية له غرقت :

وواحشتا من فراق مؤنسة
أذكرها والدموع تسبقني
جوهرة كان خاطرى صدفا
يا بحر أرخصت غير مكترث

يمتنى ذكرها ويحيها
كأننى لئلاسى أجاريها
لها أفيا بسـ وأحميا
من كنت لا للبياع أغليا

* * *

ابتها في حشاك مغرقة وبت في ساحلبك أبكيها
ونفحة الطيب في ذوائها وصبغة الكحل في مآقيها
عانقها الموت ثم فارقها عن ضمة فاض روحها فيها
ويلى من الماء والتراب ومن أحكام ندين حكما فيها
أماتها ذا وذاك وغيرها كيف من العنصرين أفديها

* * *

فهل سمعت أهدأ من هذا تفجعاً؟؟ لو كانت هذه الجارية لسيف
الدولة أما كان المتنبي يكسف الشمس ويخسف القمر وينثر الكواكب
شدر مذر .

وهل فات واضعرو الأناشيد الوطنية قائلا يقول قبل ثمانية قرون .
ولو أن أرضى حرة لآتيها بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكن أرضى كيف لي بفكاكها
من الأسر في أيدي العلوج الغواصب

وكيف يقول في الفونوجراف من هذا قوله في العود :
في حجرة أجوف له عنق نيطت بظهر نخالة حدبة
بمد كفاً إليه ضاربة أعناق أحزاننا إذا ضربه
قلت الا فانظروا إلى عجب جاء بسحر فانطق الخشبة
وماذا أبقى لمصورة الفلكي بعد هذا الوصف .

والبدر قد ذهب الخسوف بنوره
في ليلة خسرت أواخر مدها
فكأنه مـرآة قين أحيت
فمشى احمرار النار في مسودها

- ٩٩ -

فعمسى أن يوفق إلى نشر ديوان هذا الشاعر وطابع يعرف فائدته
وفائدة القارىء حتى لا يتفرد بين أبياته الصادقة هذا البيت :
انى امرؤ ابنى القسريض ولا أرى
زمنًا يحاول هدم ما أنا بسان

الشتاء في أسوان^(١)

ألق الريح على البشير كانوا آذان بالظهور
أسوان تزهو حين يذ بل كل مخضر نضير
في كل مربة ماء بها نور تألق فوق نور
بلد تجود له الطيب عة بالصغير والكبير^(٢)
لا تستجن شموسه إلا على غير البصير
فهرؤه براء العلي ل وماؤه عذب عمير

* * *

ما طب جالينوس قيس بطبه إلا غرور
أبدًا تحوط به ودا نعا بسور خلف سور
من كل شاهقة كأن م قلاها عمد الدهور
حصن تهاب طروقة م الآفات طرًا والشور

* * *

(١) هذه أسوان في الشتاء . وأما في الصيف فلها حال آخر ولكم وددت أن أشير على من يتشوف الى استطلاع أسرار العالم الأخير بأن يقيم عاما في أسوان . فيعلم بين شتائها وصيفها كيف تكون الجنة والنار والنعم والعذاب .

(٢) أما الصغير فما يشاهد فيها من شتى المناظر الجامعة . وآيات الطبيعة الرائعة . وأما الكبير فمناجم الذهب التي كشفها ذلك القنصل الأميركي كما أذاع روتر منذ شهر . وطية الصينى التي رفع عنها المسيو وليم دى مورجن تقريره إلى ناظر المعارف في سنة ١٨٩٥ وتابعه في ذلك الفينيون ممن فحسوا تربة المدينة ، وستظهر غير هذا ما سيجعل هذه المدينة المهمة شائنا بين مدن القطر إن لم نقل بين مدن المعمور .

- ١٠٢ -

متدفق الأمواج تر
وترى الزوارق كالبحا
قد حار فيها العنصران
والشمس شاخصة تكاد
فضفاضة الأذيال تخطر
وكأنها فوق السدى

قص وفق توقيع الخريبر
شق حومًا أو كالنصور
ن الريح والماء القدير
م تنوء من جهد المسير
م كالعروس إلى السريبر
فوق الجزائر والبرور

حساء ترقب قادمًا
وعلى الروابي والهياكل
تبدو كما نصل الخضاب
ما كان أول مغرب

في النيل من أعلى القصور
م مسحة الشفق الأخير
بعارض الشيخ الوقور
شهدت على مر العصور

* * *

كم آية في الكون أخفى
من لا يرى إلا العيا
م من خفيات الضمير
ن فما يرى إلا يسر

مساوىء المدينة ومحاسنها

التقدم الاقتصادى مصحوبا دائما بشرور وقساوات تنكر وجه
المدينة وتدنيا في السحنة من ضررتها الهمجية . ومع ذلك فهذه
الشرور ضرورية ولا بد منها . بل هي شرور إذا لم تظهر بذاتها وجب
علينا أن نعمل لإيجادها . فان كل شر منها يسبق دائما إصلاحا اجتماعيا
يعم جميع الجنس البشرى . وإليك مثلا أو أمثالا . فلولا ازدحام أوربا
لما عمرت أميركا . ولولا طمع أرباب المعامل لما كان تضامن العمال .

- ١٠٣ -

وما أطف قوله :

يطيب أفواههن الحديث يحمر الشفاة ويبض الثغور
كما مر بالورد وإلا قحوا ن نسيم مشوب بريا العبير
ألا يرتشف من يتيه هذين رضاب الحسان ، وتتسم ريح الورد
والأقحوان .

وما أغزر دموع هذين البيتين :

ويا ريح أما مرمت الحيا ورويت منه الربوع الظماء
فسوق إلى جهام السحاب لأملأهن من الدمع ماء

وهل قال شلى في قصيدة القنبرة أحدث من هذا

أصبًا هبت يريحان الصبا أو شمال سكرتنى بالشمول
حيث غنتى شادى روضة مطربات بخفيف وثقيل
في أعاريض قصار خفت

دقة في الوزن عن فهم الخليل
ولحون حار فيها معبد وله علم بموسيقى الهديل
والدجى يرنو إلى أصباحه بعيون من نجوم الجوحول

وما أبلغ وأصدق ما قال :

واشراك الردى في الغيب تخفى كما يخفين في ترب الحضيض
عجبت لجمعه فيهن صيدًا حوى بين القشاعم والبعوض

وأين بيتا صبرى أو شوقى في تنزيه صاحبتهما من هذا البيت :

لا تنكرى أنك حورية روائح الجنة نمت عليك

- ١٠٤ -

ولا استبداد الرأسماليين لما وضعت مبادئ الاشتراكية التي ستغير أصول الشرائع والآداب في العالم قريبا . ولولا جشع المرائي لما تأسست نقابات الزراع . وهكذا كل داء يحمل ترياقه في جراثيمه . وكل سيئة طارئة يتبعها حسنة دائمة مما لا تكفله لنا الطبيعة ولا الطبيعيون .

أما ساداتنا الفلاسفة الذين يهشون على الجنس البشرى كما يهش الراعى على غنمه ، صائحين : ارجعوا إلى الطبيعة ! اعودوا إلى المروج والحقول ! فلا أعلم أهم يظنون العالم يعيش الآن فيما وراء الطبيعة ! أم لعل الطبيعة لا تأوى إلا بين الأشجار والظلام والأودية والجبال !
الغرام بالفلسفة القديمة

شاهدت بعض الأدباء ينهمكون في مطالعة كتب الفلسفة اليونانية . وينكبون على تطبيق قضايا علم المنطق . ويسهرون الليالي في مذاكرة الغاز علم الكلام وما هو لو أصابوا إلا علم الكلام الفارغ إن كان للكلام الفارغ علم يدرس . يتحملون كل هذا النصب في الاشتغال بتلك المغالطات والتخمينات ولو بذلوا بعضه في تحصيل العلم الحديث لأوعبوا منه القسط الأوفر .

لا أنكر أن مراجعة الفلسفة القديمة مما لا بأس به للوقوف على حركة الأفكار . ولكن لا إلى الحد الذي يشغلنا عن فلسفتنا . كما أن زيارة الأطلال والآثار مطلوبة للنظر والاعتبار ولكن لا يصح أن تنسينا بيوتنا .

البغاء :

سل الكتاب الفضلاء الذين يدهشون لانتشار البغاء بين الرجال والنساء : ما الذى يدهش من الأمر ؟

أمن طبيعة الزوج أن يقتصر على امرأة واحدة أم طبيعة الزوجة أن تقتصر على رجل واحد ؟
لا هذا ولا ذلك .

فالقيد الأدبية هي التي قسرت كلا من الزوجين على الاكتفاء بالآخر . وكان البغاء يكثر أو يقل حسب اشتداد تلك القيود أو ارتخائها تبعاً لاعتداد الرجل بقوته البدنية أو قلة قيمتها عنده (راجع حماية العرض صفحتى ١٨ ، ١٩) .

فإذا بحثنا عن علة لهذا البغاء فلا نبحث عنها في الرجل والمرأة فانهما لم يتغيرا في طبيعتهما عن ذى قبل . إنما نبحث فيما تغير من تلك القيود والحدود . وها نحن نراها كلها قد تبدلت دينية كانت أو أدبية لأنها لا تلائم عصرنا . والذي علينا أن ننتظر حتى يهيء المجتمع نفسه كما يلائم هذه الحال أو يحدث لنا قيوداً جديدة في موضع تلك القيود المنحلة .

وإلا فإذا كنا لا نعلم إلا اشتمزاز النفوس منفراً من البغاء العقيم ، فبأى حق نحظر فعله على من لا تشمئز نفسه منه ؟

جناية الصناع على الصناعة :

لو كان لا يهوى الصانع غير المقصود من صناعته لرأيت الصنائع أبعد في طريق الكمال والاتقان مما تراها الآن .

تقول للمغنى : هذا صوت شجى . فيقول لك أى نعم ولكنه على غير ألحان الغناء .

وتقول للخطاط : هذا خط حسن . فيقول لك حقاً ولكنه لا ينطبق على قواعد الكتابة . وتسمع مثل ذلك من الكاتب والطبيب والنجار والحداد .

فياذلك المضى وياهذا الخطاط ، ما طلب الناس منكما إلا صوتاً مطرباً أو خطاً معجباً . فاطوبيا قواعدكما أو فالقياها في ألم مادام الصوت يطرب . والخط يعجب بغير تلك القواعد .

الكاتب والشاعر :

الكاتب من تشخص له في كتابته روح يتجلى فيها نهجه ومذهبه وسياق أفكاره . وهذه الروح هي السمة التي تميز بين قلم وقلم . فإذا كانت تتضاهى أنساق الأيدي . فانساق العقول لا تتضاهى إلا إذا كان منحاهما فيها التقليد لا الابتكار . أما غير هذا الكاتب ممن يستمدون ويخططون . فأولئك نساخ يستعيرون أساليب غيرهم لمعانى غيرهم . فليس لهم من كتاباتهم إلا الإمضاء . أو هم توأم لا يعرفون إلا بالأسماء .

وكتابات هذه الزمرة أقرب إلى مواضيع إنشاء التلاميذ منها إلى

ثمار القرائح ومبتكرات الأفكار . فالترجمة اليق ما يتسبب به هؤلاء إلى حرفة الكتابة . هذا إذا كانوا يجيدون لغة من اللغات وإلا ففى غير الكتابة من الحرف ما يغنيهم عن تلوين أصابعهم بالمداد .

أما الشاعر فاسمه بلغتنا يشير إلى تعريفه ولعل معجما من معاجم اللغات لا يتضمن إسما للشاعر أدل على مسماه من اسمه فى اللغة العربية .

قد عرفنا أن وزن الأعرىض غير قرص الشعر ، ولكن من هو الشاعر ؟

أهو المقصد الذى لا يعجز عن ترصيع قصائده بما يهر ويخلب من الخواطر البراقة والمعانى الخطابية المتألقة ؟

كلا ! هذا شاعر يذكرنى بصاحب ذوق مبهرج يريد أن يزىن غرفته بالرسوم فىرصص سجوفها وحوائلها بالإطارات والكفافات حتى لا يبرز منها قرن أو تظهر فيها زاوية . أو بذاك المصور الذى يصنع رسمه بهى النقوش ويهيج الألوان ليهر بها أبصار الناظرين . أو بتك القروية التى تحلى يديها فتدس عشرة أصابعها فى أنابيب من مختلف الخواتم والفصوص .

فليس الشاعر من يزن التفاعيل ، ذلك ناظم أو غير ناثر . وليس الشاعر بصاحب الكلام الفخم واللفظ الجزل . ذلك ليس بشاعر أكثر مما هو كاتب أو خطيب . وليس الشاعر من يأتي برائع المجازات وبعيد التصورات . ذلك رجل ثاقب الذهب حديد الخيال .

إنما الشاعر من يشعر ويُشعر

ولقد ضاع الشعر العربى بين قوم صرفوه فى تجنيس الألفاظ وقوم صرفوه فى تزويق المعانى ، فما كان شعراً بالمعنى الحقيقى إلا فى أيام الجاهليين والمخضرمين على ضيق دائرة المعانى عندهم وسيعود كذلك فى هذه الأيام على يد أفاضل شعراء العصر .

قاسم أمين :

أن اسم قاسم لحقيق من فتياتنا وآنساتنا بأن يرقمته فى الشنوف ويطرزه على المناديل . فإن ذلك عنوان عرفان الجميل ، وأنه لأحيا أثراً من رفع النصب وإقامة التماثيل .

تحرير المرأة ليس من الأعمال الطنانة التى أكثر ما فيها دوى ورنين . ولكنه عمل هادىء رصين ينزوى فى البيوت والحدور . لا يبرز إلا قليلا على قوارع الطرقات ولا يصرخ إلا نادراً على منابر المتدييات .

فالمرأة المصرية مدينة لقاسم لأنها كانت سجينه فأطلقها وكانت أمة فأعتقها . والأمة المصرية مدينة لقاسم لأنها كانت شلاء فأبرأها من ذاك الشلل الذى أمسك شقها عن الحركة دهوراً وأعواماً . والإنسانية مدينة لقاسم لأنه أنقدها من رق لا تجرأ مصلحة الرقيق على مطاردته . والفخر فى تحرير المرأة لا يزال الآن من نصيب قاسم . أما من قفوه فى هذا المقصد فهم إنما درجوا على طريق بينة الآثار وسلكوا فى منهج مأبور .

- ١٠٩ -

الحقوق العامة والاستعمار :

إباحة الحقوق العامة لكافة الأفراد في كافة الأوطان مرهونة على زوال الاستعمار .

ومتى يزول الإستعمار .

متى عولت الدول على جودة البضاعة لا على قوة الاساطيل .
وأخذ كل أهل إقليم في استغلال أقليمهم واستخراج ذخائره فتسقط حجة المستعمرين الذين يقولون - وهم صادقون فيما يقولون - أن الاحق بالأرض هو الأقدر على الانتفاع بمخزاتها والنفع بها .

يومئذ يبطل الإستعمار . ويومئذ ترشد الأمم من ضلال الوطنية فلا يطلب الوطن من الفرد إلا عضوًا عاملاً ولا يطلب الفرد من الوطن إلا محلاً للعمل . يومئذ تتحد وجهة الإنسانية فتكاتف وتتآزر بعد أن كان تقاطع وتدابير .

اللغة العربية :

قد لا تنقل اللغة العربية عن أوسع اللغات في كثرة المفردات ولكنها لا تزال من أفقرهن في المعاني وقد لا تنقص مواد المعجم العربي عن بضع مئات من الألف ولكنها مع ذلك تظل أفقر من لغة أخرى لا تشتمل على أكثر من ثلاثين أو أربعين ألف مادة ذلك إن اللغة العربية ليست لغة واحدة وإنما هي مجموعة لغات شتى فرمما كان للشيء الواحد عشرة أسماء تدعوه كل قبيلة باسم منها لا تدعوه به أخرى مما أكثر فيها المترادفات بلا جدوى فبينما نستغنى في معنى من المعاني

عن ستة أو سبعة أسماء نحتاج في معاني أخرى إلى اسم واحد . وقد شعر العربى بهذا الافتقار في المرتين اللتين اضطر فيها إلى الخروج من الدائرة الضيقة التي كان فيها بين المناخ والبيداء ومضارب الخيام . الأولى لما نقل الفلسفة اليونانية فدخل في اللغة العربية كثير من مصطلحات اليونان وحدثت فيها أوزان واشتقاقات لم تكن تمس الحاجة إلى استعمالها من قبل والثانية في عصرنا هذا عند انتشار العلم الحديث باكتشافاته واختراعاته التي لم تكن تخطر لكان البدو أو الحضر على بال .

أقول ذلك توصلا إلى القول بوجود توسع اللغة العربية الفصحى بنحت جملة من كلمات اللغة الدارجة في بنيتها ونقل المصطلحات العلمية والفنية إليها كما هي في لغاتها الأصلية لئلا نجشم الطالب العربى مراعاة اصطلاحين عوضاً عن اصطلاح واحد ولئلا نفصل عن الحركة العلمية العامة فتنشق بين أعم العالم بعلم عربى لا قبل له بمساوقة علم الأمم جمعاء .

فالعلم العصرى علم الإنسان وليس علم العربى أو الانجليزى أن الفرنسيين فالاهتمام بتعريبه عبث واشتغال بما لا يفيد .

مسقبل الشعر

الشعر يخالف العلم ولكنه لا يناقضه الطب الهندسة وتناقض الكيمياء الطبيعة .

والرجل الراقى يفترق عن المنحط بكيفية التخيل لا بكميته فالأول

- ١١١ -

مرتب الخيال لطيفة والثاني مشوش الخيال كثيفة فالعالم لا ينقص خيالا
كلما ازداد علماً .

فاذا تنبأ علماء العصر فليتنبأوا بتحسين الشعر وارتقائه لا بمحوه
وإحائه .

ياراحلا صدع الحمام شبابه	فعلمت كيف تصدع الأكباد
إني لاحسبني أراك مجاهدا	والنيل حولك دائم الأزباد
وأراك ترمقني وقد غلب الردى	وأقام جند الموت بالمرصاد
في ساعة ما كان أغفل خاطري	عما عراك وفيت في الأعضاء
أمسيت رسماً في التراب معطلا	وغدوت نصب روائح وغواد
ويحي أترقد تحت أطباق الثرى	واقيم بعدك هائما برفقاد
أتبيت رهن صفائح وجنادل	وأبيت بين وسائد ومهاد
لو أنصفت أيامنا لبكيتني	لكنها تجرى بغير مرادى

سقياً لأطهر موجتين أقلتنا	بين الجوانح أطهر الأجساد
حننا عليك وضممتك كأنها	ضمات صدر أنحك بعد بعاد
فمضيت بينهما كأنك هاجع	واها لذلك الهاجع المتهادى
يازهرة شرقت بما تحيا به	فدوت وأورق شوكتها بفؤادى
إن الحياة - وماحييت لكى ترى	سرا الحياة - كثيرة الاضداد
فلئن عدوت من الحياة نعيمها	فلقد عدك شقاؤها انتهادى ^(١)

(١) رثاء أخ لى مات غريقاً وقد ضاعت أكثر أبيات القصيدة كما ضاع غيرها من الأبيات
والقصائد بين الناكرة والأوراق .

عزاء الى ضيف الشارع :

أيها أرفع في حكمكم
منعم توقظه غسادة
غطاء هذا ريطه رصعت
ياأمة ديسدنها الخس
أوبائس توقظه الشمس
نجمًا وذاك الخز والبرس
الى ساكنة الدور الخامس :

ياطلعة في العلا تراءت
أكوكب أنت في الدرارى
أم أنت حورية أطلت
أن تحقرى الأرض فارفعينا
أيها البدر
تحفها هالة البهاء
أم ملك لاح في العلاء
للناس من شرفة السماء
اليك ياربة السناء

أنا في الأرضى ساهر أيها البدر
ناظرى وحده يراك وقد أغف
فأعنى على السهاد كلانا
روفي الأفق أنت يابدر ساهر
سى من الناس موهنا كل ناظر
حائم في الظلام يابدر حائر

الشذور

الراحة

أهونا آدم رجل سبط القامة ، عريض الألواح ، جثل الشعر ، في لون بشرته أدمة ، وعلى عيائه سيماء الطيبة والسلامة ، ولنظراته دلائل الأمانة والجهامة . ولم أدركه أنا ولكنى صادفته في المنام ، وعرفنى به وحى الدم . والدم كما يقولون جذاب ، والعرق دساس . فلما صادفته ذكرت موجدة طالما وجدتها عليه كلما راجعت سيرته في الجنة . فقلت له ياأبانا يغفر الله لك : ماأقل ميراثك وأكثر وراثك !! أقطعوك الجنة بما رحبت فلاصتها عليك ولا حفظتها لبنيك بعدك . ثم خرجت منها فما تزودت من الطافها واطايبها ولا احتقبت من تحفها وعجائبها ، عزاء لابنائك الضارسين بالحصرم الذى أكلت ، والمنغصين بالثمرة التى جنيت . وتركتهم في ظلمات الحياة يعمهون ، وعلى وجه الأرضين والبحار يخبطون ، فلا يهتدون . فهلا إذ كنت في الفردوس كان لك بطيبانه المحللة ، غناء عن تلك الشجرة المنوعة ؟؟ وهلا إذا أكلت منها تذكرت بنيك فقطفت لهم من ثمار الفردوس مايتنسمون منه رائحة تلك الدار التى كنت فيها . ثم أورثتهم الحنين إليها ؟؟ وكان مطرقاً . وكأنا هجت في نفسه ذكرى منسية ،

فاغر ورقت عيناه بالدمع ورأيته يغالب نشيجه ويتنهد ثم مد إلى يده
وقال : قدك يا بني قدك^(١) !!

ولاتعجل باللوم على أهلك ، فو الله ما الزلة في الأولى والأخرة
إلا زلة أمكم حواء ساعها الله . وما نسيتمكم علم الله يوم الخروج
يوم المعصية والحرمان . أواه . وما كان أحلى تلك المعصية ثم ما كان
أمر ذلك الحرمان... كنت أمشي في ذلك اليوم وأتلفت أسفاً على
ما أودع ووجلا مما أنا قادم عليه . وكانت حواء تمشي إلى جانبي
ذاهلة مستعبرة . والنساء يابني يفعلن الأفاعيل وهن بعد لا يملكن فيها
غير الذهول والبكاء فينا أنا أمشي وأتعثر ، وأبطيء الخطوة أستزيد
بها الدقائق وقد كان لنا ثم مقام الأبد لولا ما فرطنا ... إذ عابت على
قدى خطوات جوهرًا وهاجا قد صفت حوله الطير وحفت به
الأملك ، وهم ساهون عنه غير مقبلين عليه - ذلك جوهر الراحة
يابني ومن آفته أن من يحرره لا يحس به ولا يقدر قيمته . فأوضعت
إليه فالتقطته ولم يشعر بي أحد .

قلت: وأين ذلك الجوهر يا ابتاه! أهو معك الآن ؟؟ قال: مهلا .
إني خشيت أن أظهر حواء عليه فترز أنا به كما قد زرأتنا بالنعيم كله .
فسترته ييدي وما كادت تمس الأرض قدمي حتى أسرع فخبأته

(١) قدك أي حبك .

(٢) أي مسافة .

في حرز حريز . وقضيت وا آسفاه ولم أطلع أحدا من أبنائي على موضعه . وهذا سرلا إخالكم وفقتم عليه . فلا غر وأن قام منكم في الزمن الأخير من يتسبب إلى القردة دوى ، ولا بدع أن تياسوا من الجنة وتولوا بوجوهكم عنها..!

قلت : بل قد وقد وقفوا عليه . ولا أدري من أين . ودرروا أنك التقطت جوهرا من الجنة وأنه جوهر الراحة . فطفقوا يبحثون عنه في اليقظة والنام وكلما ظنوا أنهم ثقفوه^(١) أذاهم أبعد ما كانوا عنه - إذا ابتغوه في الأمل لم ينقص لهم أرب حتى يجد لهم أرب ، وإذا أراغوه^(٢) في اللهو فعاقبته الندم ، أو نشدوه في البطالة ففي البطالة السأم ... تائهين على غير هدى ، ضاربين في مناكب الأرض سدى . يبدؤون ويعيدون ، ويعيدون ويبدؤون ، وهيات ما يوعدون . أفلا كفيتهم الآن هذا النصب ، وعوضتهم عما تجشموه من سالف الحقب ؟؟ قال : لاتطمعوا أن تجدوه حيث أنتم كادحون ، فانما قد دفنته تحت التراب . في مكان لا يراه من ينظر السماء ولا يرى السماء من ينزل إليه من إليه ... ولكنكم متى حللتم جوف الأرض واطرحتم كل أمل لكم في ظهرها . فهنا لك الراحة السرمدية !

(١) وجدوه (٢) أراغ الشيء طلبه

الغرور

دخلت على صديق لي أديب فسمعتة يجادل رجلا أميا لم يغادر
مسقط رأسه قط . وكأنه كان يهيمه أن يقنعه بضلاله ويؤنبه عليه
فكان يخاطبه بلهجة بين الغضب والسخرية ويقول : أى شيء زين
لك أنك تفقه من هذه الشؤون مالا أفقه وأن لك فيها رأيا تعتد به
فترجحه على الآراء كافة ؟؟

أبان الله منحك من ذكاء القريحة ونفاد البصيرة ماقد حرمته
وماأدعيت من قبل ولاأدعى لك أحد أنل من أرباب المواهب النادرة
والأفكار الخارقة ؟؟

أم بسعة اطلاع وغزارة علم وقد علم الناس وعلمت أنت إننى
تقلبت فى مجالس التربية من لدن نطقت بأولى كلماتى إلى أن استغنى
عن المسح شارى^(١) وطالعت من الكتب أضعاف زنتك ورقا وأنت
لم تقرأ حرفاً فى صحيفة ولا تفرق إلى اليوم بين الألف والعصا ؟؟
أم باختبار الناس وممارسة الأيام وانت فى عقر دارك منذ ولدت

(١) قال أحد الأعراب فى ولد له عقه :

وربته حتى إذا ما تركته

فتى الحرب واستغنى عن المسح شاربه

تغمد حتى ظالمًا ولوى بسدى لوى يده الله الذى هو غالبه

لم تبرحها صباحًا إلا لتتكفىء إليها مساء ، وأنا قد سايرت الدهر
وسايرت النجم فقاسيت الغربية وكابدت المحنة وصحبت عليّة الناس
وغوغاءهم ، وبلوت كبراءهم وصغراءهم ، وزاولت كل عمل ،
وطرقت كل باب فأنكشف لي من ظواهر الناس ويواطنهم مالو أنني
لم أقرأ بعده كلمة لكان حسبي ، ومالو أنه لم ينكشف لي لما كنت
قد قصرت عن شأوا أنت أدركته ولا جهلت أمرًا أنت حصلتته ولم
تجهله ؟؟

أم بالسن وأنت ندى ، أم بالوحي والألهام وقد انقضى عهد
النبوة ، أم بالصدقة ولا حجة للصدقة ؟؟

قلت لعل أجيبك عما يزين له ذلك . يزينه له الغرور الذى تمتلىء ،
منه كل جائحة وتنبيض به كل جارحة . ولولاه لمات أكثر الناس غمًا
بقصورهم وحزنًا وأسفًا على عجزهم وتخلفهم . وإذا كان لا يد لكل
إنسان من أن يحب نفسه فلا بد له من أن يختبط بها وإلا فقد عجز
الإنسان حتى عن حب نفسه لغير سبب ، كما قدر الغرور على أن
يخلق لكل إنسان سببًا يرضيه عن نفسه وأنت لو أمكنتك أن توقف
إنسانا ثم أمرت أمامه الثقلين جميعًا يقولون له أنه أجهل الناس وأحقر
الناس وشر الناس وأضعف الناس ، ثم خلا ذلك الإنسان بنفسه
لأمكنه أنه أعلم الناس وأجل الناس وخير الناس وأقوى الناس .
بكذب الناس كلهم ويصدق الغرور يقدر على أن يعوضه عما يسلبه
منه الغرور . فان كان فقيرًا علل نفسه بأنه سليم الجسد موفور العرض
أو بأنه لو أحصيت ديون الغنى وأمواله لكان هو أثرى منه مع الراحة

من عنت الغرماء ، أو أن يدبر ماله القليل بما يجعله أغنى من صاحب المال الكثير ، أو أن الله أخلف له في ذريته ما أنقص من رزقه ، وأنه يكسب قوته بعرق جبينه وكد يمينه ، وذاك يكسبه من السحت والحرام ، ويئده في البدخ والأثام .

وإن كان جاهلا زعم أنه ليس بالغبي ، ولو كان تعلم ماتعلمه العلماء لبزهم في العقل ، وتقدمهم في الفضل ، وأنه على جهله يفهم بالبداهة مالا يفهمه العلماء إلا بالدرس واللجاجة

وإن كان مهينًا ذليلا قال مالى وللرفعة والثناء ، والعزة القعساء ، أضيم الأبرياء واعتوا على الضعفاء ، وأروى بهم الحقد والبغضاء ، وما يتبعهما من سوء الثناء ، وأنصب^(١) لما ليس يعينى من الأشياء ، وأخدم المرؤوسين وأنا أحسبى من الرؤساء ألسنت أنا في هذه الدعة والرخاء ، أولى بالغبطة والخيلاء ، وأعز في ذلتى وضرعى من الأعراء ؟؟

وإن كان ناشئًا حدثًا والمنافسوه من الكهول والشيوخ قال أجل ولكننى أعلق في اليوم مالا يعلقونه في الشهر وأفيد في الشباب مالا يفيدون في الهرم وأعى وأنا في الدار مالا يعيه غيرى بغير الرحلات والأسفار ، والتجوال في شواسع الأقطار .

وإن كان ذميما اتهم المرأة ، أو مجرما سب القضاة ، أو مناقمًا قال هذا عين الحكمة والدهاء ، ولب الفطنة والذكاء .

(١) أنصب .

وهكذا يعين الغرور كل امرئ على أن لا يسلم لمن هو أعلى منه بالسبق والأفضلية . ويدخل عليه أن ما عنده خير مما عند غيره . ومن حسن حظ المغرورين أن النعم والنقم والمناقب والمثالب توأم تتشابه في السمات ، وتتباين في الصفات ، ولكل نعمة توأم من النقمة ، ولكل فضيلة صنو من الرذيلة . فالسعادة أخت البلادة والدعة أخت التواني والأرادة أخت العناد والزمانة أخت الحياء والأنفة أخت العجرفة والقحة أخت الجرأة والاحتيال أخو الذكاء والجود أخو السرف والبخل أخو القصد والمجد أخو الجبروت والحلم أخو الجبن والفصاحة أخت الثرثرة والكآبة أخت الوقار والحدة أخت الضجر وهلم جرا . فيسهل على المغرور أن يمسح كل فضيلة رذيلة ، ويمثل كل نقمة في زى النعمة . ويكون هو أسعد الناس بمثالبه ونقمه ، ويكون غيره أشقى الناس بمناقبه ونعمه .

ومما يحكى ويناسب ما نحن بصدده أن عجوزا شوهاء قرعاء عوراء عوراء بخراء وقفت أمام المرأة مرة وجعلت تقول :

عجوزا نعم ولكننى شبت على صلاح... شوهاء ! بلى ولكننى لم أتحال ولم أزور على الناس بالطلاء كما يصنع سمجات النساء ... قرعاء ! أجل ولكننى لم أدنس رأسى بوساد الخنا والفجور . عوراء ! أى ولكننى لم أنظر لرؤية قط ... بخراء ! صدقوا ولكننى طهرت فمى أن الوثه برائحة الهُجر والمهاترة وتتن السفه والمشائمة فوفرت بعلى وأمن جلسائى من لسانى... قالوا وكان إبليس واقفا يسمعها فقال يا فاجرة ! لقد عرضتك على الزناة والفسقة فى مشارق

الأرض ومغاربها فكلهم عافوك وصدوا عنك ، وأقسم لو كان فيك مطمع لغير القبر لما أبيت أن تضحى إلى عيوبك التي فيك هذه الخمازي التي تعبيرينها^(١) النساء ، وتدلين عليهن بالطهارة منها .

والى هنا لانعد الغرور شرًا محضًا . فكم أرضى ساخطًا وكم خفض من جأش محروب وكم طلبه ذابت عليها أنفس الناس حسرات . فأعطاهم منها في الوهم ما لم ينالوهم ما لم ينالوه ولن ينالوه في الحقيقة . والغرور قد يقعد المرء عن طلاب الكمالات بما يخيل إليه من حصولها عنده واستحواذه عليها ولكنه طالما استفز نفوس الطامحين إلى العلى بمزموها بما أكبر من إخطارهم^(٢) في أنظارهم فالتزموا حقوق المنزلة التي فرضوها لأنفسهم ثم أفضى الأمر إلى أن تبوأوها فاستحقوها بالتطبع بها والمواظبة عليها . فهو خير وشر ، وحق وبهتان . وما أخطأ كارليل حين قال «هو حاسة سادسة لاتشبع» وكما أننا لانصلم الأذن إذا سمعتنا مانحب ومانكره ، ولا نفقأ العين إذا أرتنا مايسر ومايسوء ، ولا نجدع الأنف إذا أنشقنا ماينعش وما يؤذى ، ولا نقطع اللسان إذا أذاقنا مايجلو ومايمر ، كذلك لانستأصل الغرور إذا كان فيه مع الصدق الأجل كذب راهن ، وكان الكنز لديه لايجلو من المارد .

(١) غيره كذ وعيرة به سواه .

(٢) الأخطار هي الأقدار .

نادى العجول^(١)

نبعت أن العجول اجتمعت مرة لتنشئ لها نادياً تأوى إليه ، ولا تعلم ماذا ساقها إلى هذا الخاطر الغريب : أقلّة العلف ، أم ضيق المداود ، أم ذلك مرض النوادي الذي سرى النباء إلى الأعمار ، قد فشا حتى سرى من الأناسى إلى الأبقار ؟؟ هذا سر في صدور العجول .

فلما تكامل عددها ، وانتظم عقدها ، وقف منها عجل يظهر من كبر دماغه أنه ملم بالتاريخ والأخبار وقال : وأيها الساة !! إن العجل مدنى بالطبع . ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بنى آدم بضخامة الأجسام وصلابة القرون . ولقد عبر بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون لنا بأسنا ويتمسحون بأذيالنا حتى أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الدنيا أحد سوانا ، فأهونا من قرط الأجلال ، وسمحوا لنا بالغدو والآصال ، وكانوا يحسدوننا على قروننا فدعوا أكبر أبطالهم وأشدهم بأساً وأرفعهم ذكراً أعنى الأسكندر المقدوني بذي القرنين . وما أسكندرهم هذا وما قرناه ؟؟ ألما تنتهي لما ما يجب عليك لبنى جنسك ، وما هو فرض معين عليك لنفسك

قال محدثي : ولما بلغ الخطيب إلى قوله هذا بأن الحماس على أوجه العجول قاطبة فهزت رؤوسها استحساناً ، وفحصت الأرض

(١) كتبت هذا المقالة في ناد اتفق أن أكثر أعضائه كانوا من ضخم الأبدان وقد تأسس

النادى لأسباب تجعل لذكر القرون في المقالة مناسبة ظاهرة !!

- ١٢٢ -

باظلافها طربا ، وضربت جنوبها بأذناها مرحا . وخشى عاقبة هذا الحماس عجل هرم فقام وقال : الآن قد عرفنا ما يوجب علينا إنشاء هذاالنادى ، وسمعنا ، فخذوا بنا فى انتخاب الزعيم ، ومن رأى أن لايزيد وزنه عن عشرة قناطير ليكون خفيف الحركة فى أعمال النادى

وكان يتكلم ويتمهل ليلبس شفثيه ويجتر مضغ لعلف التى ترد إلى فكيه فلم يمهله الخطيب الأول بعد جملة الأخيرة فوثب كالمنخوس وصاح وهو يرتعد من الغضب « لا ! لا ! لا ! لا ! وكلا وألف مرة كلا ومعاذ النعرة الجنسية أن نرضى بهذا الاقتراح . أفتقبل علينا زعيما لايزيد وزنه عن عشرة قناطير ؟؟ فماذا أبقينا إذن لهؤلاء الأدميين العجاف الضال ؟؟ هذا ورى مايزرى بشرف العجول ويحط أسعارنا فى الأسواق حطة لا قائمة لنا بعدها يدالدهر »

قال محدثى : فماج النادى واضطراب ثم كثر الزئاط واللجب وكاد ينفذ الجمع بلاطائل . لو لا أن تلاقى الأمر ذلك العل الهرم فوقف متبسما وقال :

« ياإخوانى : ماأردت أن أغض من شرفكم بما اقترحت عليكم ، ولكن معنا هنا أبقاراً حلب الدهر أشطرها ، وأكل نير السواقى فرائصها . فهى مازالت ترى أن السمان الفواره منا عرضة لظلم بنى آدم ، وأنه خير للنادى أن يكون زعيمه معتدل الضخامة لبالجسيم الهائل ولابالنحيف الناحل . فان كان ذلك لايرضيكم ، فشأنكم

- ١٢٣ -

وماتريدون ، ودونكم وماترتضون فأنا لكم أيها الأخوان لموافقون «
هذا وبرك فهذا الأضطراب وجالت رقاع الأنتخاب

جالت الرقاع فانتخبتم العجول زعيما شنيع الوجه ، متفرج
البطن ، منحوس الطلعة ، نكير الصوت ، ثم اختارت الرئيس
فالوكيل فالناموس فالفتش فالأمين - خمسة عجول تتفاوت في
الجسامة حسب تفاوتها في الدرجة ، فاصطفت صفًا ، ثم أقلت
وأدبرت ، ثم دارت في الندى تدبدب بأرجلها ، وتشول بأذيالها
وتنفخ التراب بمنخرها ، ثم خورت خوارارج الفضاء ، وطبق
الأرجاء ، وأصبح في الدنيا منذ ذلك اليوم ناد للعجول ...

علم الاحترام

نعم علم الاحترام . ولماذا لا يكون الاحترام علما ؟؟ ألا يشتمل
كما تشتمل العلوم كلها على مبادئ وأصول ، وحقائق وفروض ؟؟
والعلوم على تعددها تبحث في مقادير المواد والأشياء وفي نسب بعضها
إلى بعض ، فان تجاوزتها إلى الناس لم ترتق إلى الموازنة بينهم ، ووضع
قيمة صحيحة لكل منهم ، أما علم الاحترام الذي تريد أن نبثكره
فبيحث في أقدار الناس ومايتفاضلون به من عروض الحياة ومحاسن
الشم . فهو أشرف العلوم موضوعا ، وهو آخر مايتلقاه الطالب يتلق
العلوم الأخرى في الكتب ويحضرها على الأساتذة ، وهذا العلم
لاكتاب له يحضر أبوابه وأقسامه ، ويضبط قواعده وإحكامه ،
ولأستاذ يمليه عليه طالبه فيريجه من جمع متفرقة ، إذ هو مفرق بين

أيدي الناس الرفيع منهم والوضيع ، والمحنكين منهم والأغرار ، ففى كل يد عجالة مبتورة ، ومع كل خريج وصية ناقصة . وإنما على الطالب أن يتتبع أجزاءه في مظانه ، ويستعين عليه بأهله . فانه إن لم يفعل لم يفعل لم يكن قصاراه أن يجهل ما يحترم به الناس ، بل جهل الناس ما يحترمون به .

ولم أقصد بعلم الأحرار هذا الذى يصنعه بعضهم إذ تراه يتهب ويوجل وهو داخل على من يحترمه كأنه يقتحم غابات أفريقية ، أو ينتفض ويشد عرى قبائه كأنه يقابل ثلوج المنطقة القطبية ، أو يهبط بيديه ثم يرفعهما كأنه يحشو التراب على رأسه ، أو يرخيها على صدره كالكلب يعالج الوقوف على رجليه . فهذا علم شائع قد حفظه كثير من الناس وأتقنوا . وليس بين الرجل وبين أن يحترق نفسه فتنقاد له مبادئه وخواتيمه في أقل قولك ألف باء .

ولكن قصدت العلم الذى من عرفه فقد عرف الإنسان ومن جهله فقد جهل كل شيء والذى لا يعلمه إلا القليل ولا يعمل به إلا الأقل من ذلك القليل .

رأيت رجلا ذا قدم في هندسة البناء راسخة ، وشهرة في سائر فنون الرياضة ذائعة . وكنت أسمع أخاه يقول لو كان أخى في أيام خوفو لما بنى الهرم الأكبر أحد سواه ، ولو حضر بابل يوم اندك صرحها لما دكه الله ، ولكن رأيت يبطأ على يد صعلوك يسيل مخاطه على سباله ، ويجرى لعابه على لحيته فيقبلها ظهرا لبطن ثم بطننا لظهر . فقلت هذا رجل يشيد الهياكل إلا أنه يعبد الأصنام ، ويعرف نسب

الأعداد والأرقام ، ومقاييس الأجسام والأحكام ، ولكنه لا يعرف الطول من العرض ، الخلف من القدام ، في علم الاحترام .

هذا نصيب مهندس كبير من هذا العلم فما ظنك بالجهلة وماذا يبلغ أن يكون جهد السوق السفلة ؟؟

تقول لك آداب السلوك أحترم من ينفعلك ، وتقول لك آداب الصدق احترم من ينفع الناس . والقصد بين المذهبين أن أن تحترم من لا يسمعك احتقاره سواء في شرك أوفى علانيتك . أما الناس فيحترمون من يخافون شره أكثر من احترامهم من يطلبون بره . وربما شاب احترامهم لأهل البر بعض الرياء وأما احترامهم للظلمة والبطانة فخالص لاشائبة للرياء فيه ، بل هو احترام لو أكرهوا أنفسهم على تركه لما استطاعوا .

ويارب فتي مبتدىء في هذا العلم يخرج من كنف أبيه أو أستاذه ويمضى على رأسه حائرًا لا يعلم من يحترم ولا كيف يحترمه ولا يعلم من يحتقر . ولا كيف يحتقره . وتراه يغالى باحترامه ويضن به على من لم يكن أمة في رجل ، وعالمًا مجتمعًا في واحد ويمسك بميزانه وقد وضع في إحدى كفتيه صنجة النبوغ وصنجة الأخلاق وصنجة السم^(١) وصنجة الرأس وصنجة الثروة وغيرها من الصنجات التي يوزن بها الرجال ، ويذهب بالكفة الأخرى على يجد الناس من يملأها ويثقل فيها . فما هي إلا دورة أو دورتان في الطرق والبيوت والأسواق والمحافل حتى يؤوب وقد رفع كفته أكثر الصنجات . يرفعها

(١) السم التوفيق وجمال الهيئة .

واحدة بعد واحدة ولا يدع في الكفة إلا صنجة أو اثنتين . وهما في الغالب صنجة الرهبة وصنجة الطمع . ثم لا يمضي غير يسير حتى يصبح وهو لا يرجع في ميزانه إلا أخف الناس وزنا عنده ، وحتى يكون بين ظاهره وباطنه في الاحترام أبعد مما بين الأرض والسماء .

ولقد هالني هذا الأمر وخفت منه على آداب المبتدئين فعن لي أن أدعو لجنة من العلماء إلى وضع كتاب واف صريح في علم الاحترام يعصم الناس من الخلط والخبط فيه ويحجزهم عما يتخلله من الدهان والملق ... فاستقر رأبي على هذه الفكرة أيام . ولكنني رجعت إلى نفسي فقلت ومن ياترى يشرح للناس مسائل هذا الكتاب ؟؟ وأى أستاذ يرضى بأن يعلم الناس علما يحتقرونه به ؟؟ ألا يكون شأن الأساتذة في هذا الكتاب كشأن الفقيه المنافق في كتب الدين ؟؟ يلقن الناس منها مايدر عليه الرزق ، ويوطيء له الأعناق ، ويعمى عنه العيون ، ويتركهم من الدين القويم في جهل مقيم ، وعن اليقين ، في ضلال مبين ؟

فبيست من أن يكون للناس قسطاس صادق المعيار ، أمين على الأقدار . ورأيت أن أفضل ما يصنع العلماء أن يشتغلوا بعلومهم التي انقطعوا لها وأن يدعوا كلا ومايهتدى إليه في علم الاحترام .

جمجمة الإنسان

أذكر فيما قرأت من حكايات الفرس حكاية يروونها عن النبي عليه السلام . زعموا أنه أصحر^(١) ذات يوم قائظ ومعه الصحابة فنزل في ظل شجرة باسقة وإلى جانبها غدير ماء مصطفق رقرق يشوقك النظر إليه إلى الشرب منه . فلما اشتد أوار الظهيرة عطش النبي فقام إلى الغدير فتناول منه بجمع كفيه وشرب فوجد أبرد ماء وأعذبه ، وأصفى ورد وأطيبه ، ثم عطش مرة ثانية فعاد إليه فترشف منه رشقات روته من غلة العطش ولم تروه من عذوبة الماء وحلاوته . وذهب في المرة الثالثة فوجد على الشاطئ إناء فأخذه وملاه من الغدير واجترع منه جرعة فاذا تلك العذوبة ملح زعاق ، وإذا صفاءه الضاحك البشوش قدر لا يطاق ، فمج الماء من فمه ونظر في الأناء فألفاه نظيفاً ولم يتبين فيه ماعساه أن يكون منشأ هذه الملوحة والقنارة . فرفع بصره إلى السماء متعجباً وكأنه يسأل الله عن سر هذه المعجزة وماذا أراد جلت قدرته بهذه العبرة ، ويقول كيف ينقلب الماء في لحظة من طعم إلى طعم والغدير واحد . فما ارتد طرفه حتى أنطق الله الأناء في يده فقال لا تعجب يا بن الله فإن في التراب الذي صنعت منه خرة من جمجمة أنسان ، فهذه الذرة هي سبب هذا التغير ، ولو عللت يانبي الله من الماء براحتك كما نهلت^(٢) لما أنكرت من طعمه ما أنكرت .

(١) خرج إلى الصحراء .

(٢) نهل شرب للمرة الأولى وعلل شرب للمرة الثانية أو الثالثة .

ما أراد واضح هذه القصة أن يقول أن في جمجمة الإنسان مرارة كمرارة الخنظل ترشح الخنظل فيما يخالطه من الأشياء ، ولكنه يقول فيما ورى به أن في رؤوس الناس سما حاضراً يرد الطيب خبيثاً ، ويحيل السائغ المرىء كريها مسقما ، وأن هذا الجانب المسموم من رؤوسهم يضيع عليهم كل ما يدأبون له ويضربون عليه^(١) ببقية جوانب رؤوسهم التي بها يعملون على رفاة العيش ، ويرغبون في هناوة البال .

إن هذا السم الذي في رأس الإنسان يضني صاحبه قبل أن يضني البعيدين عنه ، وكلما كان الرأس قريباً إليه وكثير الاشتغال به كان سمه افتك وأسرع فعلا . وهذا هو المشاهد المحقق . فأول من يلدغ الإنسان نفسه ثم عترته الأذنون ، ثم خالصاؤه المقربون ثم أهل وطنه المعاشرون ، ثم الأعداء الحاقدون ، ثم من لا يعرفهم ولا يعرفون من الناس : أبعدهم عنه أسلمهم ، وألزمهم له أظلمهم ولو تسنى لامرئ أن لا يعيش إلا مع من لا يكثر لهم ولا وصلة بينه وبينهم ، لما عز على أحد أن يسبدل أقصى الناس عنه بألصقهم به . ولقد جعل السم في ناب الأفعى وقاية لها فصار هو مدعاة هلاكها ، حتى أن ما يقتل منها لأجله أضعاف ما ينجو بسببه ، وهكذا صار السم الآدمي مقتلا وسلاحاً لصاحبه ، وداء ودواءه .

أنا لأصدق إلا أن الإنسان أقدر على أشقاء نفسه وغيره منه على إسعاد نفسه وغيره . فلماذا هذا؟ لأن السعادة ليست ضرورية

(١) يضرب على الشيء بمعنى يشتد حرصه عليه .

- ١٢٩ -

للإنسان كالشقاء ؟؟ نعم نحن أرغب في السعادة ونحن أطلب لها .
ويخيل إلينا أننا لانحيا بغيرها . ولكن لماذا لم نعط من وسائل السعادة
ما أعطيناه من وسائل الشفاء ، وما معنى هذه الرغبة يا صاح ؟؟ هل
تأتلف الرغبة والحاجة دائماً ، أم هل ترتبط الكراهية بالاستغناء في
كل حين ؟؟ اللهم لا .

فيا أيها الظالمىء الجاد وراء السراب : إن كان ظمؤك إلى السعادة
وليس إلى شيء آخر فلا ترج أن تشربها في جمجمة إنسان ولا سيما
الجديدة التى لم تعتق والمقفلة التى لم تكسر .. وإنك قد يحلو لك
سلسيل الحياة إذا تجرعت منه بكفيك ، ولكنك حيثما عمدت إلى
إناء غير يدك ، أو أداة خارجة عن جسدك ، فهناك لابد من ذرة
من جمجمة إنسان ..

الصدى ونرجس

الصدى فى أساطير القدماء جنية من بنات الغاب والأودية ونرجس
فتى سليل الهين من آلهة الماء . وكانت الصدى ذات منطق فصيح
وحدث خلاب يستهوى السامع فينسيه نفسه ، ويلهيه عن شأنه ،
فمرت بها (هيرا) حليلة (زوس) رب الأرباب فاستوقفتها بالحدث
وعاقتها عما قدمت له . وكانت هيرا قادمة لتباغت (زوس) مع خليلها
وحده فى مخدعها . وعلمت هيرا أنه لولا الصدى لما أفلت أولئك
الضرائر منها فغضبت عليها وسلبتها قوة الحدث إلا أن تردد ماتسمعه
ولا تزيد عليه .

أحبت الصدى نرجس فلم يقل بها ، وامتنع عليها أن تبثه هيامها
فذاب لحمها ، وبلى عظمها ، ولم يبق منها إلا نفس مصعد وصوت
مردد . أما نرجس فقد نقتت عليه (نميس) بنت الليل والربة
المنتصفة للظلوم من الظالم . نقتت عليه جفاهه وتبته فأمهلته إلى أن
أقبل على بعض العيون ووقف يعجب بما أبداه الماء من جماله فمسخته
زهرة في مكانه ، فهو لا يبرح واقفاً على حافات العيون والجداول
ناكس الطرف يطل على خياله في الماء .

بهذا التمثيل الشعري كان القدماء يفسرون عجائب الطبيعة
ويشاركونها الأحساس فيتهجون ويخالون أنها تضحك لهم ، ويحزنون
ويحسبون أنها تبكي معهم . ويصاحبونها مصاحبة الأحياء للأحياء ،
فكانت الطبيعة حياة كلها وليس في زاوية من أخفى زواياها موضع
للجمود .

وقد كانت هذه الأساطير مادة غزيرة للشعراء فأولعوا بالنظم
فيها ، وعنى أحدهم بنظم قصص المبدولين والمتقمصين فسبكها
أحسن سبك.. وهو (بيلوس أفيداس ناسو) شاعر لاتيني ولد قبل
الميلاد ونفاه القيصر أوغسطس من رومة لافتتان الشعب الروماني
بغزله . كما نفى عمر بن عبد العزيز الفرزدق من المدينة لتهنكه ، كما
نفى المهدي بشارا عن النسيب في أبان المدينة العباسية . وإليك ما نظمته
في حكاية الصدى . قال :

«راحت الصدى تقفو أقدام نرجس ولا يراها . وكلما لحقته
تعاطمت برحائرها ، وتحرقت أحشاؤها ، كهواء المشاعل يتبعها ولا

- ١٣١ -

تدركه الأبصار ، ويكاد يضطرم وإن لم تمسه نار . وطالما همت بأن
تفاتحه بتحية أو تستعطفه بكلمة . فكان يخونها الحياء ويستعصى عليها
النداء .

«وضل نرجس عن رفاقه يوماً فجعل يصيح أليس هنا أحد ؟ قالت
الصدى ... هنا أحد ... وسكتت .

«فبهت نرجس وتلفت حوله ليرى مصدر الصوت ، ونادى هلم
إلى ا فسمع الصدى تجيبه : هلم إلى ...

«وقال نرجس دعينا نلتق !! فسرعان ماسمع رجع كلامه بصوت
مد فيه الحنان ، وترنمت به الشعاب والغيران . ووثبت إليه تضمه
وتعانقه فأجفل منها ومضى وهو يقول : أعزى عنى !! لاكنت ولا
كان قلبي إن جرى بيننا الحب ...

«ثم ما زالت ينخر في قلبها الداء الدفين ، ويأكل منها الكمد
والأنين ، حتى عادت أرق من الهواء . ويراهم النحول إلا خفقة
نداء ، لاتلبث أن يعبث بها الفضاء .

اللؤم المكتسب

اللؤم ضربان : لؤم موروث ولؤم مكتسب . فأما اللؤم الموروث
فذلك الذى لاحيلة لصاحبه فيه ولاحيلة لمخلوق فى صاحبه ، وقد
يتمنى اللئيم التطهر من وصمته والبراءة من شبهته ، وهيهات ذلك .

وأما اللؤم المكتسب فلؤم يضطر إليه بعض الاشقياء اضطرارا . لؤم
رجل سالم الناس فحاربوه ، وحاربهم فواربوه ، وبسط إليهم راحة

الأمان فضربوه عليها ، وصرح لهم عن سويداء قلبه فوخزوه فيه ، فتعلم من الناس أن يقف منهم موقف المحارب الحذر . يراوغهم في أمره ويكتم عنهم مواطن قوته ، ثم يفتش عن مواطن ضعفهم ويتجسس على المغامز في صفوفهم . أفهموه أن ما هم فيه حرب لاسلم ، ومخاتلة لا مجاملة ، وغش لانصيحة . فعمد إلى نفسه أولاً فآخفاها وراء سور من الرياء كما يخفى المقاتل نفسه وعدته وراء سور حصنه ثم عمد إلى مقاتليه فدبر كيف يصرعهم ، ومن أين يتلذذهم . إذا ابتسم له ميتسم تفقد قلبه هل فيه مطعن مكشوف أو ثلثة مطروقة ؟؟ وتعهد جوارحه لئلا تضطرب عند المجالدة أو تؤخذ على غرة ، ويعود فيرد تلك الابتسامة بمثلها ويجزى على ابتسام بابتسام . وإذا بكى بين يديه باك أسرع إلى قلبه فأضفى عليه الدرع واجتهد أن تكون أصفق دروعه وأمتنها لئلا يكون ذلك البكاء خدعة من خدع الحرب . فإذا تثبت من قلبه وعمياً لمقابلة العدوان بمثله رجع إلى ذلك الباكي فإما بطش به أو كان أكثر من لؤما فيصافحه ولكن بعد أن يجرده من كل سلاحه وبعد أن يقلم أظفاره وينزع شكته ويتركه ولو شاء أن يخدش نفسه فضلاً عن أن يخدشه لما استطاع . فهو بعد ذلك أسيره الذي يطيع اشاراته ويسخره في قضاء حاجاته لاصنيحته الذي يحسن إليه ويرفه يته . وقديماً سمى الناس المحسن أسرا والمحسن إليه أسيرا ، وهم في التسمية ماتعدوا الحقيقة قيد أثملة إلى الهجاز .

واللؤم المكتسب هو لؤم من صدق الناس فكذبوه ووفى لهم فخونوه ، وعمل لخيرهم فأضرروه ، واحب أن ييادهم النفع فلم

يقنعوا بما دون استنزافه وامتصاصه ولم يرضخوا له إلا عن أيسر مالدبهم وأهونه عليهم . ويرضخوا له عن هذا اليسير الهين وهم قادرون على جحده والمماطلة فيه . وآرام يصدقون من يكذبهم ويأتمنون من يخونهم ويخدمون من يؤذيه ولا يشترطون عليه في نظير هذا التجاوز العظيم في هذه الصفقة الربیحة ، إلا أن يكون خداعا ماكرا ودساسا نفیما . فلم أن هاته السوق أریح من تلك وأسهل في الممارسة . ورأى أن الناس كما يزدرون الرذيلة التي لا یحميها أحد . كذلك يزدرون الفضيلة التي لا یحميها أحد . فعلم إنهم مأحباوا الفضيلة ولا كرهوا الرذيلة ولكنهم يخافون كلا منها حين يكون مخيفا ويزدرونه حين يكون عزلا ليس عنده ما يخافون . ووجد الفضيلة أوعر مسلکا لأنها غریبة والرزية ممهدة الطريق لأنها كثيرة الأمثال والأشباه فتتكب الأوعر إلى الأسهل وألقى بدلوه في الدلاء .

رأى مارأى وعلم ما علم ثم وقف وقفة یحاسب نفسه فأیقن أنه لن یصلح الناس وأنه بین أن يعتزلهم إذا قدر فيكون دينه له ودينهم لهم . أو یصحیهم فیعاملهم بالسكة^(١) التي یقبلونها مادامت كل سكة غیرها زائفة في نظرهم . وما دام الخيروون في هذه الأرض كالجن لا یظهرون لكل انسان .

وأن للؤماء عادة أن لا یوحدون بأسباب لؤمهم ولا یحاولون التنصل مما یرمون به لأن الناس لا یصدقون ولا فائدة لهم من تصدیقهم إياهم ، فلذلك یتهمهم الناس بالحق وبالباطل ویقبلون فیهم كل ما یقال عنهم .

(١) السكة هي القود .

ومتى رأى الناس رجلاً يسئء الاعتقاد بهم جميعاً لم يسمعوا له قولاً
في واحد منهم وقالوا ذاك ديدنه في التبرم وتلك شنشنة له في التجنى ،
فيصدقون شكوى الشاكين منه ولا يصدقون شكواه في أحد .
ويأبون أن ينصفوه وإن كان مغبوراً فيتسع بينه وبينهم مجال التهم
وتقطع بينهم قلة الأنصاف :

ولم تزل قلة الأنصاف قاطعة

بين الرجال وإن كانوا ذوى رحم

وما كان ليثتم لثيماً إلا بعد يأس من إنصاف الناس ويقين من
عسفهم في القضاء واغترارهم بظواهر الأحوال .

ولقد سمعت يوماً جماعة يتناشون عرض رجل لم أعلم عليه من
سوء فوصموه بنهاية اللؤم ورجموه بأشنع الخبث . وكان أطولهم لساناً
وأفحشهم طعناتى كان يدعى أنه ساعده فخذله ، وأحسن إليه فقابل
إحسانه بالأساءة . فلقيت ذلك الرجل فسألته فقال نعم . أعطاني
قطعة من السم صغيرة في قطعة من الحلوى كبيرة ، وهو يطالبني
الآن بثمان تلك الحلوى ويمن على إن وهبني السم بلا ثمن . وأخذ
يقص على من نوادر إساءة ذلك الفتى في الأحسان ، وغلظته في
الملاطفة ، وتقطيعه في البشاشة ، مالمو أنه قضى العمر في مناوآته
والكيد له يكن معتدياً عليه .

قلت : فلم لاتفشى الحقيقة . وأقل مافيا أن لايفترى عليك اناس
بما ليس فيك أو يعيبوك بعيب أعدائك ؟؟

قال : سواء على أيعينى الناس أم يشكرونى . بل أحب إلى أن

- ١٣٥ -

يعيبوني ويحذروا جانبي من أن يحسنوا الظن ويخدعوني وإن المشقة التي احتملها في أقناعهم ببراءتي لأشد كثيرًا من الضرر الذي يصيبني من اعتقادهم في اللؤم . إن كان فيه ضرر .

* * *

أنا لألوم هذا اللئيم الذي اقتبس دروس اللؤم من العالم كله وكيف وهو يقتبس من أستاذ يلوح له بالعصا أني ذهب . يلوح له بها عند مشيه وقعوده وعند جده وورائه وعند أكله ونومه وعند مصادفته ومعاداته . ويوشك أن ينال عليه بها فيقتله كلما سها عن درس أو هم بأن يتلمذ لأستاذ غيره .

وأجد من يلوم هذا اللئيم كمن جلس على مائدته بين زوجته وولده ، وبين يديه صحاف الطعام ، وأمامه الأتباع والخدام . فجعل يلوم الصياد الذي خرج يبحث عن صيده في الآجام الموحشة فتقلد سلاحه ومشى ينظر كلما نقل قدمه إلى أمامه وإلى ورائه ، وعن يمينه وعن شماله ، وهو من الحيطة والتربص يكاد ينظر بكل عضو فيه أو كأنه من التمهل التلّف يدوس على الشوك ويخطو على جحور الأرقام^(١) يخاف أن هو غفل أن يفوته رزقه أو يشب عليه سبع فيفتسه . فيلوم ذلك الصياد على احتراسه وارتيابه ويطول عليه بأمنه ودعته ، وما كان هو أكثر منه أمنًا لأنه أكرم قلبًا ولا كان الصياد أكثر ارتيابًا لأنه ألام نجيمًا^(٢) وأردأ عنصرًا .

(١) الأرقام هي الحيات .

(٢) الخيم الطبيعة .

- ١٣٦ -

أنا لا ألوم هذا اللئيم على أنتى لأ أحب أن يكثر أمثاله فى العالم .
وعذرى إياه إن الذنب فى لؤمه على قومه ، ولكن البغيض المرذول
هو اللئيم المجهول فانه لئيم أحسن الناس إليه أم أساءوا . ولادته جريمة ،
وموته - وليس سوى موته - تكفير لتلك الجريمة .

البخيل

كان لى من أعرف من الناس رجل لا يعرف الناس أبخل منه .
كان هذا الرجل إذا اشتتت نفسه الشىء مما تشتهيه الأنفس من طيبات
المأكل والملبس أنخرج القرش من كيسه فنظر إليه نظرة العاشق المدنف
إلى معشوقه ثم رده إلى الكيس وقال : هذا القرش لو أضيف إليه
تسعة وتسعون مثله لصار جنبيها ، والجنيه بعد الجنيه يجلب الثروة
العريضة ويجمع المال الحير^(١) وهبنى مهاونت بانفاقه اليوم وسمحت
نفسى به فلا آمن أن تسخو بغيره غداً . فأنما القروش كلها واحدة
فى القيمة وليس قرش بأعلى من قرش . والشهوات حاضرة فى كل
وقت ، فكأننى انفقت اليوم بانفاقى هذا القرش جميع ما سوف أملكه
وأدخره من المال ، وفتحت على نفسى باب الفاقة الدائمة والعوز
المستمر مطاوعة لشهوة حمقاء ، إن أنا وقمتها^(٢) الآن ماتت
واسترحت منها وإن آتيتها على ما تدعولى إليه كل ساعة كنت كمن
يرمى الوقود فى النار ليخمدها ، وكنت كمن يشتى الفقر ويتمنى
الإعدام وتلك والله الحماقة بعينها .

(١) مال أحر أى كثير جدا .

(٢) ردها .

ولو أتيج لتلك الجنهات أن تتحدث في ذلك السجن المطبق عن ماضيها كما يفعل السجناء . إذن لسمعت من أحاديثها لعجب العجاب بين جنه رحالة جواب ، يتنقل بك من السويد إلى الكاب ، وينبوك عن الأعاجم تارة وتارة عن الإعراب وجنيه فرار غدار ، ما سلم بالليل إلا ودع بالنهار ، وجنيه نشأ في الحانات والمواخير ، فاسترق رنته من رنات الكؤوس والقوارير . وجنيه عاشر الأبرياء والجناة ، ورافق النساك والغواة ، وجاور المعوزين والسراة ، ومر بالمساكين والعتاة ، وطر من الأصدقاء إلى الأصدقاء ، ومن العداة إلى العداة . وكلها تشهد شهادة لا بهتان فيها أن مالكة الأخر أقدر من قنص الدينار ، من الأبرار والفجار ، وأخبر من صاد النضار ، من الشطار والأخبار وأول من راض هذا المعدن السيار ، على السكينة والقرار .

ولو أتيج لك أن تشهد ذلك البخيل وقد مثل عند صندوقه وألجأته الضرورة إلى الاستمداد منه - وناهيك بها من ضرورة - إذن لحسبت أنك تشهد في جنح الليل الأعكر سارقاً ينبش القبور عن أكفانها ، وقد تملكه الهلع من حراسها وسكانها ، أو لحسبت أنك تشهد كاهناً متحنناً يقوم عند صندوق الندور بهم بأن يمد يده إليه فيتخرج من أن يستحل ودائعه لئلا يحل عليه قصاص الله ويحيق به غضبه . فان الحت عليه الحاجة أقسم أن لن ينام ولن يهدأ أو يرد إلى الصندوق ما استعاره منه . وقد لا تجد بين ألف كاهن كاهناً واحداً يقسم هذا القسم ويبر به ولكنك لا تجد بين ألف بخيل بخيلاً واحداً يحنث في هذه اليمين .

ففى وقفة من تلکم الوقفات اقترض البخيل من صندوقه جنيها وآلى بالطلاق من عرسه أن لا يدخل البيت إلا والجنيه معه . وذهب إلى السوق فكدح فيها ما كدح واحتمل حتى استرجع الجنيه نصفاً ذهباً والنصف الباقي قطعاً فضية . وكانت تلك عادته إذا أبدل الفضة بالذهب . كى تكون كل قطعة صحيحة صماماً حديدياً يجبس فيها تحتويه من القطع الصغيرة أن تتناثر وتتسرب إلى إحداها نزعات الجود ووساوس النفس الأمارة بالجميل والخبيث يسىء الظن بنفسه ويتهمها بالسخاء عن القليل الطفيف مداعبة لها وإدلالا عليها . وإلا فقد وثق وثوق المؤمن بإيمانه أنه لو اثالث^(١) عليه نقود المشرقين والمغربين دراهم ودوانق وسحاتيت لما سولت له نفسه أن يفتق سحتوتاً منها فى غير ما يدفع التلف جوعاً والهلاك عرياً . فما تمهل حين صار الجنيه فى يده إلا ريث أن أهرع إلى الصيرفى فناوله إياه مفرقا وقال أعطنى به جنيهاً ذهباً .

قال له الصيرفى : هات خمسة ملليمات

قال البخيل : وعلام هذه الملليمات الخمسة : أنك تأخذ هذا الجعل من الناس على أن تنقدم الفضة بدل الذهب ، وأنا أعطيك فضة وأطلب ذهباً ، أفلا تحمد الله على أننى صفحت لك عن حقى وجئتك ساعياً إلى مكانك ؟؟

فما زاد الصيرفى على وكزه فى صدره وكرة قذفت به إلى الجانب الآخر من الطريق . فما تملل الرجل ولا تأفف . بل وقف حيث

(١) انبالت .

قذفت به الوكرة صامتًا . والصيرفي لا يشك في أنه ينتظر أن يمر الشرطي فيستعديه عليه . فمر شرطي وثنان وثالث لا يدعوهم ولا يرح مكانه . والناس يظنون أنه يحدث نفسه بالإنقضاض على الصيرفي فيوسعه ضربا ولكمًا فيخطئونه ويلومونه وينصحون له بأن يعتذر إليه ويسترضيه وبينما هو كذلك أقبل على الصيرفي شيخ ريفي ، فكذب البخيل كل ظن وعاجل الشيخ فكان أسبق من يده إلى جيبه وصاح به : رويدك يا هذا إنك تريد أن تبدل جنيهاً وهذا اليهودي يتقاضاك خمسة مليمات وأنا أقنع منك بمليمين ، فهالك الفضة وهات الذهب . والتفت إلى الصيرفي فقال بارك الله فيك فقد قيضت لنا رزقاً كنا في غفلة عنه ولا يزال هذا دأبنا كلما اجتمع جنيه عندنا ؟ ثم ولى والصيرفي يكاد ينشق عن جلده من الغيظ والناس يضحكون .

وكأني بك أيها القارئ تظن أن الرجل آلى بالطلاق وحرص على أن لا يمين فيه وفاءً لزوجته وضناً بذات فراشه واحفظاً بأمر بنيه . فإياك أن تظلم الرجل بهذا الظن ، فان الإحتفاظ والضمن بشيء غير المال ضعف يرباً بنفسه عنه . ولكنه تحرى أفدح الإيمان كفارة وأصعبها كلفة فرأى أن كفارة الحلف بالله سهلة وربما كان في الصيام من الإقتصاد ما يغريه بالحنث كلما أقسم بالله . فاختار يمين الطلاق يهدد نفسه به ويخوفها من مؤخر الصداق ومؤونة الأولاد ومصاريف القضايا ، ثم لا بد له من زوجة تكفيه نفقة الخادم وشراء الطعام من السوق . وهذه الزوجة لا بد لها من مهر قل أو كثير ، دع عنك الأعراس وما تستدعيه عن الخروج عن العادة في الإنفاق ليلة أو ليلتين . فإذا آلى بالطلاق ذكر كل ذلك وأكثر منه فكان قيذاً لا

يستطيع منه فكাকা . ولا يفوته مع هذا أن يصانع نفسه بأنه من القابضين على دينهم الذين يجتنبون حدود الله ولا يلعبون بيمين كيمين الطلاق ، والحقيقة أنه لا يجتنب حدود الله لأن اجتنابها يوافق هواه . ولو كلفه خوف الطلاق معشار ما يصون من ماله لجار عن كل حد لله وللخلق . وعلى أنه لم يضطر يوماً إلى امتحان دينه ولم يقف بين ارتضاء الطلاق وجرائره وانتهاك حدود الله وأوامره . لأنه لم يكذب على صندوقه قط . فإذا استعار منه في الصباح سدد له الحساب في المساء .

ومرض هذا البخيل مرض الموت فجزع جزعاً شديداً ، وكان جزعه لأنه سيموت عن أقل من عشرة آلاف جنيه كاملة وكان ذلك كل أريه من الحياة . فاستحضر الطبيب بعد أن نهكته العلة ودب السقم في أوصاله وعظامه ، فأمره بأن يتعاطى دواء وأن يقصر طعامه على لحم الطيور . وكان صاحبنا على مذهب النباتيين اقتصاداً لافلسفة . فتملص بحايل الداء ويتملق الطبيب عسى أن يعدل على وصفته ، والداء يأبى إلا لحوم الطير والطبيب مصر على رأيه . ولما كان أربه في العيش لم ينته والعشرة الآلاف لم تكمل فقد رضى أهون الشرين وأصاخ لقول الطبيب وصار يأكل كما أمره وهو يتلهف ويتفحص ويتبع كل لقمة يريدتها بعملية حساب وهل أصعب في الهضم من الحساب وأثقل على المعدة من الأرقام الصماء؟؟ ولم يزل يقول بعد كل أكلة : الله الله على الصحة !! لو كنت الآن صحيحاً أما كانت تكفيني أكلة بدرهم !! فلم يسعفه الدواء ولم يبرأه الغذاء . وما ذاك إلا لأن الطبيب داواه بالطلب الذي يُداوى به الناس ووصف

له ما كان يصفه لكل مريض مصاب بمثل مرضه ، ونسي أنه يداوى دائرين لاداء واحداً ، وفاته أن دائرين أحدهما مزمن والآخر طارئ لا يصلحان بفرد دواء ، ولو سمعه كيف كان يأسف على الصحة ولماذا كان يأسف عليها لعلم أن صحة هذه البنية غير صحة سائر البنى وأن لها مرضاً غير أمراضها وأن الغذاء الذى ظن أنه يشفيه ويقويه قد حز من بدنه وأضاف مرضاً على مرضه . وقد مات المسكين بدائه ذاك ، وما أحسبه ندم على شيء وهو يفارق الدنيا ندمه على تلك الدراهم التى أطاع فيها الطبيب جزافاً . وماذا عليه لو قد عصاه فلم يفقد سوى حياته ؟؟ !!

ولهذا البخيل نوادر عديدة يذكرها معارفه فكان لا ينقضى له يوم إلا على نادرة طريفة مع بائع أو زميل أو شريك أو مدين وكنت أستظرفه فأتودد إليه وأشيعه على مذهبه فلا اقتصد فى اطراء الإقتصاد ولا أبخل بكلمة فى مدح البخل وإذا فاوضته فى الأدب أو طالعت معه فى الكتب لم يكن أحقر على لسانى من أسماء هرم بن سنان وحاتم طيء وكعب بن مامة ومعن بن زائدة وأبى دلف وغيرهم من أجواد العرب فأشنع بهم وأسأل الله السلامة من مثل مصيبتهم فى عقولهم وأموالهم وأقول له ما أجدر مادار بتمثال من الذهب ، فيقول أى وأبى ولولا ما فى ذلك من الإسراف ، ولشد ما كان يتهلل وجهه حين أتلو عليه نكبة البرامكة فيقول حيا الله الرشيد ما أحكمه وأحزمه ، وقبحهم الله ما أخرجهم وأحقهم . بادوا وخلفوا وراءهم للناس مثلاً سيئاً وقدوة ذميمة . وكانت له فى أسباب نكبتهم فلسفة خاصة لم يفتح الله بها على أحد قبله . يقول لك لا تصدق ما

يتمشددق به كذبة المؤرخين عن أسباب نكبة البرامكة . فوالله ما نكبهم ولا قتلهم إلا الإسراف والتبذير . أسرفوا في البذخ وبذروا أموالهم في الصلوات فحسدتهم الموصول وسخط عليهم المحروم ، فترصدت لهم العيون وتوغرت عليهم الصدور واستعظم الرشيد عليهم ما هم فيه فمثل بهم ذلك التمثيل وفجعهم في أرواحهم وأموالهم وآمالهم فلم يغن عنهم صنائعهم وذووهم . ولو أنهم بخلوا لنامت عنهم الأنظار وخرست عنهم الأفواه ، لأن من نعم الله على البخلاء أنه يجمع لهم بين مزيتي الغنى والفقر ، فلهم من الغنى المال الكثير ولهم من الفقر الأمان من حسد الحاسدين . ولهم من الغنى القدرة على ما يبتغون ومن الفقر القناعة بيسير ما يأكلون ويلبسون . وهما مزيتان لا يجمعهما الله إلا لمن رضى عنه من عباده .

بيد أننى فى صحبتي له كنت لا أستطيع ساعة أن أفكر بأننى أصحاب إنساناً له على مثل الذى لى عليه ، وكنت أحمل نفسى على أن تصدق أنه من البشر كما تراه عينى فلا تدعن . وكيف وهى لا تحس بأدنى اختلاف بين ملاطفتى إياه وملاطفتى الكلب أو القرد الأليف ليأنس بى ولا ينفر منى . ولقد ضل والله من يتألف الكلاب والقردة ويلهو برؤية الحيوانات العجيبة وعنده البخلاء يضمهم وإياه جنس واحد ومدينة واحدة فلا يتألفهم ولا يخف إلى رؤيتهم . أليس لو جاءك رجل فأخبرك بأن فى مدينة كذا دابة تموت من الطوى (١) وبين يديها الطعام الفاخر ويفرش لها المهاد الوثير فتجفوه إلى الأرض

الحشنة وتطلق في الفضاء الفسيح فتزجر وتئن ، وتسجن في قفص الضيق فتطرب وتطمئن ، وقيل لك إن هذه الدابة منفردة بهذه الأطوار بين بنات جنسها . أما كنت تبادر إلى تلك المدينة أو تمنى أن تساق إليك تلك الدابة ؟ فالبخيل هو تلك الدابة الغريبة في تكوينها الشاذة في أطوارها ، التي تعد من الناس وليست منهم وتجانسهم في الصورة والقوام ولا تشاكلهم .

إن الناس يعرفون البخيل بأنه الحب المفرط للمال . وهذا تعريف ناقص من جميع أطرافه . وهل العلاقة بين البخيل والمال إلا كالعلاقة السطحية بين العلم والأوراق ، وبين الشجاعة والسيف ، وبين الزمن والساعات ؟؟ وقد وجد البخيل قبل أن تحتجن الأموال وتسك النقود كما سلف العلم قبل أن تصنع الأوراق وتقدمت الشجاعة قبل أن تطبع السيوف ودار الفلك قبل أن تخترع الساعات . ولو أصبحت الدنيا قد انقرضت منها الأموال وفنى من أيدي الناس الذهب والفضة لما قضى ذلك بفناء البخيل من قلوب البخلاء لما قدمنا من أن البخيل شيء بمعزل عن المال .

وإنما البخيل عاهة تحجب الفكر وتفسد الطبع وتفرد المرء عن الفطرة العامة بين بني جنسه بفطرة منكوسة عوجاء . وتذره خلقة عجيبة كلُّ حظه من الحياة أن يحرم نفسه حظوظ الحياة . يستغرق الوسع في طلب الوسيلة ثم لاهو يقنع بالوسيلة ولا هو يطلب بها الغاية . وليس البخيل عاهة واحدة بل هو جملة عاهات ممثلة في هذه العاهة . فهو مزيج من الجبن الدنيء الذي يصور للمرء الخطر

المستحيل كأنه قضاء حتم لامرد له ، ومن الخسة التي يتساوى عند صاحبها الفخر والعيب . وتلحق عنده مراغة الهوان بمقاوم السؤدد ، ومن البلادة التي تمت فيه كل أريحية فلا تهتز في نفسه أمنية أو عاطفة تقوى على كسر قيود شحه وجبنه ، وقد ظهرت هذه الخلال للناس قبل أن يتمدينوا بآلاف السنين ومقتوها فمقتوا البخل متفرقاً قبل أن يمقتوه مجتمعاً . وغاية الفرق بيننا وبينهم أنهم كانوا يستضعفون من تكون فيه نخلة من هذه الخلال فينبذونه عنهم ويهضمون حقه ويدوسون حرمة ولربما طلوا دمه وتبرأ منه ولالة ثاره . وأما في مدنيتنا هذه التي وضعت سنة المال موضع سنة الحياة فقد صار البخيل فيها يحل ويرم ، ويؤخر ويقدم ، ويحلل ويحرم ، ويستشفع إليها بيدٍ فيها المال ويدٍ فيها جنبه وخسته وبلادته فتقبل منه هذه لتلك . وأنها لعمرى لمن الخصال التي انحطت بها المدنية عن الهمجية - وما هي بالقليلة فكم نخلة في المدنية يستحب المدنى الهمجية لأجلها ويأنف الهمجى بحق أن يتصف بها ؟؟

اللغات والتعبير

لولا أنّ الناس من أصل واحد في الخلق ، ومن لحمة قريية في النسب ، بحيث أن ما يعرف أحدهم يعرفهم جميعًا وما يصدق على جميعهم يصدق على كل واحد منهم ، لما أجدت عنهم اللغات في كتابة أو كلام ، وعتقت ألسنتهم عن كل فهم وإفهام .

ولو كان التقارب بينهم تامًا ، والشبه في السن والميل والسليقة محكما لما افتقروا إلى اللغة ، ولكان يستشعر أحدهم في روعة ما يقوم في روع الآخر من غير حاجة إلى الشرح والبيان .

ولا ريب أن الناس يتفاهمون ببواطنهم أكثر مما يتفاهمون بظواهرهم ، وإن لاح لنا أن الأمر خلاف ذلك لطول عهدنا باستخدام اللغة في الإعراب عن مرادنا . فما اللسان إلا موضع ومفسر لما عساه أن ينبهم على السامع من مجمل سر المتكلم ومما قد تحويه أفكاره ولا يمكن أن تعبر عنه تمام التعبير وجدانته ، أما حالته النفسية فهي أفصح من أن يفصح عنها اللسان بل أفصح من أن يخفيها إذا حاول إخفاءها .

وما كان الإنسان قبل آلاف الحقب أيام هو بعدُ بهم سارح في مراتع العجمة ، يعول فيما يراه من رضى صاحبه أو غضبه ، ومن صدقه أو مكره ، ومن أمانته أو خيائته ، إلا على ما يتفرس في أسارير وجهه وغمزات طرفه وحركات أعضائه . وكان إذا كلمه لم يكديثق

بكلامه ويأمن اغتياله أو^(١) يطابق مدلول أقواله ما وقرى قلبه من مغزى اشاراته ومعنى ملاحظه ، فهو يأمن السليقة ويرتاب في اللسان . وهذا سبب إعجاب الناس بالاشعار والخطب والكتب التي مصدرها السليقة وامترائهم فيما تعبت به يد الصنعة . لأنهم يقرأون نتاج السليقة فينفذ إلى سلاتقهم ويصيب مواقعه منها ويحرك من القارئ مثل ما حرك من نفس الشاعر أو الكاتب فيعلمون أنه صدقهم وحسر لهم عن سريرته فيركنون إليه .

ويقرأون نتاج الصنعة فلا يجاوز ألسنتهم وكأنهم يقرأونه وهم ينظرون الشاعر أو الكاتب وهو يتعمد للظهور لهم بغير مظهره ، ويتنقب لهم بنقاب يخفى وجهه أو يديه في غير صورته ، أو يرأئهم بتجميل هيئته وتدميم طلعتة فيخالجهم الشك فيها ويعرضون عنه . إلا إذا كان القارئ من الغرارة بحيث يصدق كل ما يقال أو من الجهل بحيث لا يميز بين السليقة والصنعة ، فانه يقبل حيث كل قول على علاته . فلا تمنعه الماذقة عن المصادقة ، وتنكسر خزانه نفسه بمبرد اللص أسهل مما تفتح لصاحب المال .

ولقد والله أحسن جولد سمث إذ يقول في إحدى رواياته : «لسنا نستعمل الكلام للإفصاح عن حاجاتنا بقدر ما نستعمله لمداراتها» . فقد طمس الكلام إلى اليوم من الحقائق أضعاف ما فند من الأكاذيب . وضلل من المهتدين أكثر مما هدى من الضالين ، وإنك ربما تقترب الرجل فتطلع من سيماه على ما يريك فتتوجس منه فإذا

(١) أو هنا بمعنى حتى .

سألته وكان من ذوى اللباقة والبراعة فى المراء والمخادعة لبس عليك الحقيقة وأزال الريب من نفسك ، فىنصحك لسان حاله ويفشك لسان مقاله . وكان آمن لك لو انك صدقته ساكتا ولم تصدقه ناطقا .

هذا فىما يملك الناس أن يبينوه أو يكبونه . وإن هناك أفكارا تلتوى على اللغات وتشمس عن التقيد بالكلمات . فما فضل الناطق فى هذه الأفكار على الأعجم ؟؟ وما زيادة الفصيح على الأبكم ؟؟ لا فضل ولا زيادة . ومن الأفكار ما هو أعوض من أن يعبر عنه ولكنه أقوى من أن يكتم . السكوت عنها ممض والتعبير عنها ممتنع . لم يتغلغل الكلام إلى أعماقها فىخرجها ، وليست هى بالتفاهة الضعيلة فتدفعها فى مهدها وتدرجها ، وقد خصت ولم تعم فلم يكن لها حظ من اللغات العامة ، وتفرقت ولم وتجمع فليس بين أصحابها المتفرقين لغة متبادلة . فاعلم إنه لا يريحك من هذه الأفكار إلا سكوت كالخطاب . وذلك أن تجدلوا على البعد من يعانى مثل هذه الأفكار فىحيط بكتابك من عنوانك ، وتلهمه الكلمة العاجلة ما تضيق به الفصول المذيلة ، ويسبح معك برهة فى عالم لا السنة فيها ولا آذان 11

يتحدث الرجلان وبينهما تنافر فى الأمانى والأذواق فىفرغ أحدهما جعبة بلاغته ، ويمتئى غرار حجته ، ويستنفذ أفانين حيلته ، ويحسب أنه أقنع جليسه واستولى على لبه ثم ينهض هذان الجليسان وأن بينهما من البعد لما هو أبعد مما بين الميت ومناديه ، والنجم ورائيه ويجلس غيرهما وقد توافيا على أمنية ، وتمازجا فى الطوية ، فىقضيان الساعات لا ينبران إلا بالكلمة بعد الكلمة ثم ينهضان وقد نقل كلاهما إلى

أخيه خلاصة نفسه وطبع صورته في صدره . ومن منا من لم يشاهد
الحالتين فتيين له لغة الصمت أحيانا مقدار حدائه لغات الكلام .
وأنى لأصغر شأن هذه العلوم والآداب القائمة كلها على تفاهم
اللغات كلما تأملت فرأيت الأشياء الكثيرة التي تقوم بوجودانات
الإنسان ولا يحس بها ، والتي يحس بها ولا يعبر عنها ، والتي يعبر
عنها ولا تصل برمتها إلى عقل سامعها ، فيتأكد لى أن الناس في حاجة
إلى تفاهم أرقى من هذا التفاهم اللغوى . ولعل هذا النقص هو علة
كثير من المشاكل التي تقع بينهم أما وأفرادا وتزول لو كان التفاهم
بينهم كاملا .

فليتخذ الناس اللغات رموزا وإشارات تنوب عن المعاني لمن يعرفها
ولا تمثلها لمن لا يعهدا أو يأنس بها . وليعلموا إنهم ما داموا لا
يقولون كل ما يريدون أن يقولوه فهم خرس وإن نطقوا . وإنما البليغ
المبين من الناس رجل يجيد الإشارة بلسانه أو يراعه . ولن تعنيه هذه
الإجادة عن أن يكون سامعه ممرنا على التنجيم والتخمين . وأما من
اخطأه هذا المران ، فسيان عند الإشارة باللسان ، والإشارة بالبنان !!

قوة الإرادة

خطر لى أن أبتدع فى التجارة بدعة حسنة فاخترت أن أتاجر بالأخلاف النافعة للمصريين . فاقتديت بأولى الخبرة والنظر البعيد من التجار إذا عزموا الاتجار بسلعة من السلع فى بلد من البلدان ، يتوخون حاجة السوق ويستقصون عادات أهل البلد ثم يقدمون على بصيرة من عملهم وأمل وطيد فى الزواج والنجاح فتوخيت حاجة السوق فى مصر وتقصيت عادات المصريين وفتشت عن الخلق الذى ينقصهم أكثر من أى خلق سواه فعلمت أنه قوة الإرادة فعولت على أن يكون اشتغالى بهذا الصنف من الأخلاق .

وراقنى هنا الخاطر فمئيت نفسى رواجاً سريعاً وربحاً جزيلاً وأنتى سأكون أنفق تجارةً وأكثر عائدةً من المتاجرين بيننا بالوطنية والدين لأن حاجتنا إلى الوطنية والدين أقل من حاجتنا إلى الأخلاق ولا سيما قوة الإرادة . وفى مصر كثير من الوطنيين والمؤمنين ولكن قل فيها من كملت عليه نعمة الأخلاق فغنوا فيها عن اللزيد . وذهبت أحصى أرباحى ومكاسبى فى السنة الأولى فالسنة الثانية وفى السنين التالية فضاق بها الحصر ولم يستوعبها الحساب ، وسرى أن أحلم بأنه سوف لا يكون فى الاثنى عشر مليوناً الذين يسكنون وادى النيل مصرى واحد إلا لديه مقدار كبير أو صغير من تجارى ، فقلت أنها والله للتجارة التى لا تبور .

واكترت الدكان فى أوسع أحياء العاصمة وأحلفها بالسابلة

والقطان وزخرفته أهما زخرفة فصفحته بالبلور وغشيت جدرانه بالذهب وصنعت رفوفه من خشب الهند ونقشت عليه لوحة من أجمل ماخط الكاتبون كتبت عليها «هذا دكان قوة الإرادة . يعطيك على نفسك سلطاناً لا حدّ له» ثم جلست على بركة الله أشمر للتعب والعمل وأخففهما عنى بما أرجوه من المنفعة لى وللناس .

فكان أول من سنع لى فى صباح أول يوم فتحت فيه الدكان رجل سكران قد تخالعت أعضاؤه من الوهن واحمرت عيناه من السهر وانعقد لسانه من الخمر فوقف قبالة الدكان يترنح ذلت اليمين وذات الشمال وأوشك أن يميل على ألواح البلور فيحطمها ويكدر علينا صباح الاستفتاح بطلعته المشؤمة . ولو كنت ممن يطهرون لأغلقت دكاني لساعتى وجزمت بالفشل ولكننى تصبرت ولبثت ألاحظه وهو تارة يحملى إلى وتارة يتهجى العنوان حرفاً حرفاً حتى أتى على حروفه بعد عشق النفس ثم قال لى وكأن روحه تصعد مع كل كلمة !

أأنت صاحب الدكان ؟

قلت نعم

قال أنت بعينك ؟

قلت أنا هو بعينى لاسواى ...

قال وتبيع قوة الإرادة ؟؟

قلت من جميع الأصناف والأثمان

قال ولنا أيضاً تبيعها ؟؟ .. لا تؤاخذنى فإنى أحب أن أستفهم ؟؟

قلت أجل . لك ولكل من يشتريها

قال : فأنها أسهر كل ليلة كما ترى وأسكر وأقامر وأجىء في هذه الساعة فيثقلنى النوم ولا أحب أن أنام . فهل عندك صنف من الإرادة أتسلط به على النوم ويقوينى على السهر ليل نهار ؟

قلت : ليس هذا من الأصناف الموجودة ولو وجد لما بعناه . ونحن باعة الأخلاق لا نقل في الأمانة لصناعتنا والحفاظ بدمتنا عن الصيادلة . وقد تعلم أنت أن الصيادلة لا يبيعون كل دواء لكل طالب ولكن عندنا أصنافا أصالح لك من هذا الصنف . فهل لك فيها ؟

قال : أرنيها

فسردت له أسماء الأصناف التي في الدكان وأريته كل صنف منها في علته ولم آله تفصيلا لفوائدها وترغيبًا فيها وبسطت له أسماء الإرادة المانعة . وخواصها منه الناس عن مقارفة العادات الضارة . من التدخين إلى المقامرة ومن الكذب إلى الوقية . وتختلف المقادير والأثمان ، باختلاف الأدمان والأزمان .

وأصناف الإرادة العاملة وخواصها لإيلاء الناس عزيمة وصبرًا على تذليل مصاعب الأعمال وتحقيق همات الأنفس . وأرخصها قضاء المرء واجبه ، وأنفسها قضاؤه واجب أمته ونوعه وهي أغلى من الإرادة المانعة لأن القدرة على أداء الواجب أندر من القدرة على اجتناب المحظور . وأعلى هجرك ما تؤاخذ به فملك ما تحمد عليه . وعددت له أسماء نفر من عظماء الرجال الذين دفعتم قوة الإرادة

ودفعت بهم أمهم إلى ذروة من الشرف تتقاصر عنها الذرى . وأطنبت في الوصف والتحسين وهو يصغى إليّ بما بقى في حواسه من الانتباه ، فأطمعنى أصغاؤه في أن يكون أول تجربة ناجعة وأصدق إعلان عن الدكان . ورأيته يطرق مليا ثم قال : ولكن من يضمن لى جودة الأصناف ويكفل نقاوتها من الأخلاط والأوشاب .

فقلت فى نفسى سبحان الله ! هذا الذى يذهب كل ليلة إلى الخمار لا يسأله أيسقية سَمَا أم خمرًا . ويغشى موائد القمار يخسر كل ليلة صحته وماله ثم ينساق إليها بغير سائق لا يريد أن يشتري قوة الإرادة إلا بضامن ؟ ولكننى جاريتته وقلت له : لا خوف عليك من هذه الجهة فسأعطيك علبة نموذجًا فجرّبها وسل من شئت من التجار . ولك بعد ذلك الخيار .

* * *

انصرف السكران بالعلبة ذلك اليوم وعاد إليّ فى اليوم الثانى مفيقًا صاحبيا فجلس بتؤده وأدب وقال لى : لقد تعاطيت أمس علبتك ولم أعاقر ولم أقامر ولا أدرى أفضّل العلبة ذلك أم لنفاد المال منى . وكنت إذا نفذت المال منى اقترضت ، فلم أقترض أمس ، فلا أدرى أيضًا أكان ذلك قوة فى الإرادة أم حياءً من الرفض وكنت لا أستحى فلا أدرى والله أكان حياءى خلقا جديدًا اكتسبته منذ تعاطيت قوة الإرادة أم هو لتكرار الطلب واليأس من الإجابة .

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم
ومن أكثر التسأل يوما سيحرم

على أننى سألت التجار تاجرًا فاستغربوا اسم الصنف ولونه ورائحته ومعدنه واتفقوا على أنهم لم يسمعوا به لاف الشرق ولا في الغرب . ماعدا التاجر فلانا فقد عرفه وفحصه قليلا فرده إلى مشمئزًا وهو يقول : خذ يا شيخ ! فقد سمعنا هذا السخف والتدجيل ! وهل فرغ الناس من سلطان الهموم فيسلطوا عليهم قوة الإرادة أيضًا ؟؟ وإذا كانت عوائق الدهر تحرمك شطرًا من ملذات الحياة وأنت تحرم نفسك الشطر الباقى فأنت لاشك الذى يقال فيه أنه عدو نفسه .. فخل عنك هذه الأضاليل ولا يفرنك ما تقرأ من العناوين وما تسمع من المواعيد فلو كان فى هذه التجارة خير لما غفل عنها الناس إلى اليوم ، ولم ينسها دهاقين التجار الأزمان المتطاولة لتكون بدعة من بدع هذا الزمان المنكود .

فأسكت هذا المهذار وندمت على التفريط فى العلة وكان أعجب ما عجبت له كلام ذلك التاجر لعلمى بأنه ممن يميزون من أمثال هذه الأصناف ويحسون بنقص السوق فيها . ولم يكن بيننا مجاورة أو مشاركة . فعضى عنى غرضه من تبغيض الناس فى بضاعة ليس بينى وبينه منافسة عليها . ولكنى وقفت فيما بعد على سبب ذلك . وهاك بيان ما وقفت عليه :

رأى فلان المذكور هذه التجارة المستحدثة فقدر لها الربيع الطائل والرواج السريع ورأى أنه ليس أيسر عليه من تقليدها . شأن الأغلاق النادرة . تزييفها كثير والغش فيها جائز ، وذاك لأن عارفها معدودون

ولأن جاهليها يحكمون عليها باللون والرونق وليس بالثمرة والجوهر .
فقرر بينه وبين شيطانه أن يستفيد من هذه الفرصة ويختص بذلك
الربح فما وني دون أن فتح له دكانا تجاه دكاني وتأنق في ترويقه
وتنظيمه ، وكتب عليه «هذا دكان قوة الإرادة الصحيحة . يعطيك
سلطاناً لاحد له على ملذات الحياة» .

فتح الدكان واستأجر له دلالاً سليطاً يفتأ سحابة النهار يصرخ
بصوت كقصف الرعود أو قرع الطبول : ياطالب الإرادة الصادقة ،
حتى على الغنيمة قبل فواتها !! ياعشاق العزيمة الماضية هلموا إلى أعظم
معمل للعزيمة الماضية ، هيا إلى أرخص سلعة سعراً وأسرعها فعلاً
وأصمدها على الطوارئ أثراً . إرادة لا تتكأدها^(١) عقبة ولا
تصددها عن غايتها طليبة . فمن اشتهى السكر فصدته عنه مرارة الراح
فليشتر من هذا الدكان فيستعذب تلك المكرارة ويعاف عندها كل
حلاوة ، ومن صبا إلى الشهوات فأشفق من عقابيلها ومغباتها زودناه
بقوة إرادتنا فأصبح لا يحفل بالعدل والملام ، ولا يبالي بالضم والسقام
ومن تورط في القمار ثم تهيب خشية الإملاق والدمار ، وخفاة
الفضيحة والعار ، فعندنا ما ينزع منه تلك الخفاة ، ويضحكه من
هواجس تلك الخرافة . وعندنا لكل مرید إرادة ، ولكل إرادة
شهادة . فالبدار البدار ! قبل غلاء الأسعار فاليوم بدرهم وغدا
بدينار .

فما شككت في أن المسكين معتوه قد خسر رأسه وسوف يخسر

(١) تكأدهته العقبة:وقفت في طريقه .

رأس ماله وتوقعت له الخراب الجائح القريب ، إذ من أين له يزاحمني في تجارتي وأنا مبتدع التجارة وهو المقلد . وأنا أبيع إرادة الجد والعمل ، وهو يبيع إرادة اللهو والكسل . ولكن سرع ما أخطأ حسابي وارتد عليّ تكهنى . وما راعنى إلا الجماهير على أبوابه يتكوفون^(١) وبضائعة في كل واد تسير ، بحيث لم تخل منها المدينة والقرية ، والبيت والحانوت ، والحانة والنادى ، ولم ينته الشهر ففتح دكانا جديدًا إلى جنب دكانه ، ودار الحول فكان له في الحى خمسة دكاكين وأصبح أعظم تاجر في الديار .

أما أنا فقد أعطيت في اليوم الأول تلك العلبة لذلك السكران فكانت أول وآخر ما صدر من دكاني . ومرت أيام وأيام ، وتلتها شهور وشهور ، وتمت ثلاث سنوات مجرمات^(٢) ، وأنا بتلك الحال أراقب التلف يدب في بضاعتي وأعين السوس يتخر في إرادتي - وما الإرادة إلا كالسيف يصدؤها الإهمال ويشحذه الضراب والنزال - فدهشت وغضبت ثم صبرت وتعللت ، ثم يشتت وسلمت ، فأهلت الدكان وطلقت التجارة ، وها أنا ذا أسأل عن المحكمة لأودعها الدفاتر والمفاتيح .

(١) تخمبون .

(٢) السنة المجرمة الكاملة .

الشجاعة والعدوى

لا أحسب أحداً يجهل أن هناك فرقاً بين الشجاعة وحب الموت ،
كفرق بين الجبن وحب الحياة . فقد يهجم اليائس الموتور على حتفه ،
ويطرح بنفسه مطارح الهلكة . وهو بعدُ الجبان المنخوبُ . وربما كان
هجومه هذا آية جبنه وجزعه . وقد يبرز الوحش الضارى للفارس
الصوّول^(١) أو يدهمه القطار أو يسقط عليه الحجر العظيم فيتخاشاه
ويفر منه ..

* وهو الجرىء على الحمام المقبل *

وإنما يعمد الإستخفاف بالحياة والإجترأ على الموت إن كان ذلك
الواجب تصغر الحياة فيها ، ويتحتم الموت لأجله . وأما فيما سوى
ذلك فلا واجب على الحى أقدس من واجب صيانة الحياة ودفع الموت
عنه ، ولا جناح عليه أن يحب البقاء أبد الدهر لو كان إلى البقاء
سبيل .

إن كان ذلك كذلك فلا فائدة لك ولا للناس في أن تدخل مع
جرائم الحميات والأوباء في وقعة مشكوكٍ فيها . وأنت وحدك
وهي - أبادها الله وشتت شملها - قد شبت على الاتحاد والتكاثر وإن
كانت في جو مصر ! ؟ فتهاجمك في الماء والهواء ، ومن بين يديك
ومن تحت قدميك ، وأنت لا تراها ولا تشعر بها . ونحن مع ما نعلم

(١) كثير الصيال .

من أن الحكومات تكافىء كل شجاع على استقبال الموت في حومات
الوغى وبين نيران الحريق ، ما علمنا قط أنها علقت نوطا أو وساما
على صدر أحد لأنه صارع الميكروب فصرعه وانتصر عليه . اللهم
إلا إن كان بعض الأطباء قد يظفر منها بالنوط أو الوسام تنويها بنصره
عليه وفتكه به . ولكنك خليك لا تغرك شجاعة هؤلاء الأطباء فانهم
يحاربون الجراثيم وهى مكتوفة فى الأنابيب ومخدرة بالعقاقير وليس هذا
من أصول الحرب ولا من شروط المناجزة فى شىء .

وأن من غرائب الخليقة وطرف العقول أن يكون بين إخواننا فى
الآدمية من تراه يقيم فى وسط بؤرة تصعد منها رائحة البلى ، ويركد
فيها الهواء من ثقل ما على كاهله من القدر والقذى ، وتسمع فيها
الميكروب كالنباب .

« هزجا يحك ذراعه بذراعه »

وينادى فيها عزريل ليلا ونهارا : ألا من حى فأزهقه ؟؟ ألا من
نائمة فأسكتها ؟؟ ألا من تعب مكدود فأحمله ؟؟ ويمر أمام بصره فى
تلك البؤرة مركبات الأموات حثيثة العدو من عالم الدنيا إلى عالم
الآخرة .. وتقول له انج يا صاحبي بروحك واسلم بعمرك . وقد
يكون من منهبك أن من ينتظر مثل هذه النصيحة من سواه غير
جدير بأن يحرم الحفار أجره وقبره والبزاز ثمن كفته . فتغلظ على
نفسك وتأخذك الهوادة فى مذهبك وتنصحه بالرغم من ذلك فيقول
لك : معاذ الله أن أخاف الموت أو أفر من قرب الله ... يقولها الملعون
وكأنه يعتقد أن الله بعيد إلا عن تلك البؤر التى يفوح نثها وتطرده

الملائكة وخامتها . ويقولها الملعون وهو يجهل أن عمر بن الخطاب
فر من الطاعون ، ولما لامه أبو عبيدة وقال له أتفر من قدر الله ؟؟
قال نعم إلى قدر الله ... وناهيك بعمر شجاعة وصبرا وإيمانا بالله
واتكالا عليه .

ولو صاحب من هذه الطغمة - ولا عار في الصحة - عثرت به
في إحدى تلك البؤر فنصحته تلك النصيحة فكنت كأتما أخزه بها
ونحزاً ، وإذا هو يزور عني ويلوى كشحه ويقول : أأنا أعياً بالحميات
والأمراض ؟؟ ومثلي يافلان يرضى أن يذاع عنه أنه أجفل من
الموت ؟؟ وهل يدركنا الموت في مكان وينسانا في مكان ؟؟ وما كان
ظنك بعقلي وأنت تنصح لي بالجلء عن دارى التى ولدت فيها
والانهمام أمام عدو لأراه ؟؟ وأين ما عودتك فى من الجلد وعودتنى
فيك من تشجيع الأصدقاء ؟؟ وو قلت حسيك ولكنى آسف
ياسيدى على هذه الشجاعة الفائقة أن لا تتصدى بها لكل قوة من
قوى هذه الطبيعة المغرورة بنفسها . وما بالك تستهزىء بالموت
بالجرائم كأنك تستصغرها ولا تستهزىء بالموت غرقاً أو حرقاً أو
صبراً^(١) وهذه القواطر والسيارات والترام كثيرة في البلد ، والناس
يتنحون لها عن الطريق ويفرون منها كل مفر ، فما بالك لا تثبت
أمامها وترهبها أنك لست من هؤلاء الناس ؟؟ بل ما بالك لا تبالغ
في احتقار الجرائم والزراية بها فتشرب قدحاً من حمض الفينيك الذى
يقتلها لتبرهن لها على أنك لا تعبأ بما يميتها . فكيف بها ؟؟

(١) الموت صبراً أى جوعاً .

ولما رأيت أنني سألته بقدر ما سألتني ، وأجبتة بمثل ما أجاوبني
فصلت^(١) من عنده وأنا أفكر في اقتراح أعرضه على أولى الأمر :
وهو أن تجمع الحكومة أفراد هذه الطغمة وتلصق بوجوههم علامة
يعرفهم بها من يراهم . حتى إذا وقف أحدهم في طريق سيارة أو
ترام أو تعرّض أمام صائد يطلق على هدفه ، لم يكف الصائد يده ،
ولم يتعب السائق في إيقاف سيارته أو ترامه ، فيضيع من وقت
الركاب دقيقة أو أكثر لإنقاذ حياة هانت على صاحبها إلى هذه الدرجة
وليست هي على الناس بأقل هواناً .

مواضيع الملاحه

مهما تعمقوا في تعريف الملاحه ووصف محاسن الوجه وقالوا فيها
ما يشبه قولهم في السحر أو الروح واليوم الآخر ، فلا إدخالها تُرد
في بادئ أمرها إلا إلى إنها شارة في أظهر عضو من الجسم - أعني
لوجه - كانت ولا تزال في بعض الأحيان تدل على فضيلة جنسية
في جسم الرجل أو المرأة .

إن أظهر ما تظهر الملاحه من معارف الوجه في العين والشفة
لأنهما الجارحتان اللتان ترسم فيهما حالة النفس وإحساسها بغاية
الوضوح والجللاء ، وبهما تختلف أمة عن أمة وجنس عن جنس فالعربي
والمصري والصيني والانكليزي والألماني وغيرهم من الملل والأمم
يتأثلون بالعيون والشفاء . وكذلك الرجل والمرأة أصدق وأوجز ما

(١) أي خرجت .

يقال في هاتين الجارحتين أنهما نافذة النفس فمنها تطل على العالم ومنها يطل العالم عليها . ولعل ما تكشفه منا وللناس أكثر مما تكشفه من الناس لنا .

لابد من صلة محكمة دقيقة بين العين والرأس لأن نظرة العاقل غير نظرة المجنون وقل مثل ذلك في الغادر والأمين ، والفظ الوديع ، والسقيم والسليم ، والشهوان والعفيف ، فإن لكل منهم نظره غير نظرة الآخر . أما صلة الرأس بالجسم وما يندمج فيها من الطبائع فمعلومة ملحوظة . فالعين بهذه المثابة هي عنوان صفة النفس ومزاج الجسد .

ولابد من صلة بين الشفة والإحساس لأن الشفة هي ملتقى أعصاب الوجه وهي أدق أعصاب الجسم . فلا تهبج في الجسم هائجة ولا تسكن به ساكنة إلا بدا لها أثر على الشفة . ففتتر أو تهتدل أو تنقبض أو تنقلص أو ترتجف . وترى الإحساس في الشفة يتوق إلى مقابلة مثله لأن الإحساس يبلغ فيها أشده - وهذا هو الميل إلى اللثم والتقبيل - نعم أن الأعضاء كلها تميل إلى المماساة ، ولكن الميل لا يكون إلا على قدر إحساس كل عضو . فلا تميل اليد إلى اليد كميل الشفة إلى الشفة لأن الفرق بينهما في الإحساس كالفرق بين المصافحة والتقبيل . وقد وضعت هذه الحساسية في الفم لأنه هو باب الجوف ، والجوف بحاجة إلى حاسة ظاهرة تجيد له حبس الأشياء قبل وصولها إليه . وقد نرى الأعمى لا يعتمد في حبس الأشياء إلا على شفتيه لأنه حين فقد البصر وأصبح معتمده على الحس وحده لا يشعر في جسمه بما هو أल्प على المس من شفتيه .

فالشفة هي ترجمان الاحساس ومحيس العواطف . وإذا كان في الإنسان خاصة تتصل بالاحساس كان أخرى الجوارح أن تظهر عليه تلك الخاصة الشفة . فقليلاً ما يلتبس عليك الصابر الكظوم بالقلق اللجوج أو الأريب الكيس بالحميقة الأبله ، من التأمل في شفاههم وهيئة أفواههم ، وإذا التبسوا عليك ساعة الهدوء والصفو لا يلبسون ساعة الغضب والاهتياج .

ولرب وجه صبور جميل يروقنا استواء خلقه واعتدال تقسيمه ويحيرنا نقد معارفه وقسماته . ولكننا يؤلنا أن لا نتعلمي من ذلك الوجه بحظ الاستحسان الذي شوقنا إليه منظره . ووجه أقل منه جمالاً وصباحة وأخفى روعة ورواء وهو يسبينا ويثير بلابلنا ويستولى على إعجابنا : وقد ننسب ذلك أحياناً إلى اختلاف الأذواق أو خفة الدم ، ولو أنعمنا النظر في ذينك الوجهين لم يطل بحثنا عن السبب وعلمنا أن ما نسميه تارة باختلاف الأذواق وتارة بخفة الدم هو معاني تتضمنها العيون والشفاه ليست من جمال الصورة ، على أنها هي شطر الجمال الأكبر . وهي التي تفيض على ذلك التناسب الهندسي الممول روحاً حياً جذاباً .

إن لكل عضو جمالها الخاص به وجمال العيون والشفاه عام لا يجعل الجمال إلا به . ولو نظرنا إلى مزية في العيون والشفاه تجعل لها هذا الشأن في تقدير الجمال غير اتصالها بالاحساس ذلك الاتصال الذي المعنا إليه لما أبصرنا لها أي مزية سواها . فلماذا لا نقول أن الأصل في حب الجمال هو امتحان قابليات الجسم بأظهر جزائه للناظر ؟؟

- ١٦٣ -

أفي ذلك نخس للجمال ؟؟ ما الجمال إلا صبغة لا تفارق الجسوم ،
فكيف نوفتي بين احتقار الجسم وتنزيه صبغته ؟؟

هذا كلام لا يرضى به عشاق الجمال ولا يروقهم أن يكون حبيهم
له نوعًا من حبس النبض وقتًا من الفراسة . فان كان إرضاءهم لأبد
منه فليذكروا أن جمال أجدادنا لا يستحق أكثر من ذلك ، وأننا لم
نرث جمالنا وعواطفنا من غير أولئك الأجداد .

الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع
أخلاق الفرد والجماعة .	٣	مقدمة
الجماعات والأغنام	٦	خلاصة اليومية
جوقة العالم	٦	كلمة
المضحكات	٧	الجماعة الإنسانية
الجمال والجلال	٧	الفضيلة والرذيلة
الاعتراف بالنقص	٨	إنحطاط الشرق
الأطفال رجال صغرى ..	٨	جنون النبوغ
المساواة فى التجارة	٩	التشبيه الشعرى
حماية العرض	٩	إرادة المصرى
ثمرات اليراع	٩	بقايا الحيوانية فى الإنسان
منظر على غير مسرح ..	١٠	العمل والأمل
تربية المرأة	١١	الفيلسوف
مذهب نيتشه	١١	الحسد
تغير المؤلف	١٢	المطالعة والتجارب
الموت	١٢	الشعر والألفاظ
تواضع الملوك	١٣	حب الظهور
الأثرة	١٣	التعصب الدينى فى المستقبل
الحاجات والتقدم	١٥	الحروب الصليبية
الرياء	١٧	التعصب فى العصر الحاضر
الكلام والأوزان	١٨	تقليد النساء
العالم فى نظر أكمه		دلالة القصص على درجة الأفكار فى
الموسيقى	١٨	الأمم

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٦	الضحك	٣٠	نهاية الرق
٤٧	البكاء	٣٠	الميراث
٤٧	الغنى والسعادة	٣١	فراصة المرأة
الحرية الشخصية وتقدم الحركة	٣١	التاريخ القديم	٣١
الاقتصادية	٣١	الطلاق	٣١
القوة والأخلاق	٣١	تعدد الزوجات	٣١
إلى المجلس الحسى	٣٢	أقذار نجد	٣٢
الغاية وللأغاية	٣٢	التغريب	٣٢
الطب والشعوذة	٣٢	أحاديث الشبان	٣٢
عدم الاكترات	٣٢	أحرب	٣٢
مناقشة مع الأستاذ وجدى	٣٦	الاستخدام	٣٦
شح البحر	٣٧	العشق	٣٧
فاكهة النعام	٣٩	قطرنا بدى على فسيلة قبر	٣٩
فنون الجنون	٤٠	الألعاب غير الرياضية	٤٠
الناموس الأخلاق	٤١	التفود والسحاء	٤١
الحكومة فى الشرق والغرب	٤١	بقايا الميثولوجى	٤١
فى سالون حلاق	٤١	الفضيلة المأجورة	٤١
الارتقاء ودلال النساء	٤٢	المبداى	٤٢
طمأنينة اليأس	٤٢	الاعتماد على الذات	٤٢
الحنان لعله	٤٣	شرف المهنة	٤٣
الرأى العام	٤٣	بماذا يشفى الشعراء	٤٣
هواجس ما بين القبور	٤٥	داء الحياة	٤٥
نقض اللغات	٤٥	القول والقائل	٤٥
اقتراح	٤٥	الآداب القديمة	٤٥
عشاء المدينة	٤٦	الإصلاح الاجتماعى	٤٦

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٩٠	الرشوة	٧٠	وحش في غير لقاب
٩٠	الطريقة الإنشائية	٧١	تربيتنا الدستورية
٩٠	وحدة الحكومة	٧١	التنافس سلم الرقى
٩١	القضاء والقدرة في الطبيعة	٧١	ياليل
٩١	كلنا ننطوى	٧٣	السعادة في وهم الناس
٩٢	السعادة	٧٣	احترام الضعف
٩٢	حرم الأوهام	٧٣	الانخفاض أساس الرفعة
٩٢	عرض الحياة	٧٣	فضل الفقراء على مدينة الإنسان
٩٢	سائلو بطرس باشا	٧٤	أين موضع العجب
الحمر والخصب ينميان الأديان كما ينميان		٧٤	آداب المجاملة
٩٣	الأغصان	٧٥	حك المعجزات
٩٣	ابن حديس	٧٦	حقيقة الشعور بجمال التصوير
١٠٠	الشتاء في أسوان	٧٧	أعمار الموتى
١٠٢	مساوىء المدينة ومحاسنها	٧٧	بنات أوربا على الإيل
١٠٤	الفرام بالفلسفة القديمة	٧٧	تقسيم التركات
١٠٥	البغاء	محادثة مع أخى الصغير امام البنك	
١٠٦	جناية الصناع على الصناعة	٧٨	المصرى
١٠٦	الكاتب والشاعر	٨٠	أين الحقيقة
١٠٨	قاسم أمين	٨١	خلود الفنون
١٠٩	الحقول العامة والاستعمار	٨١	نقد الكتب
١٠٩	اللغة العربية	٨٢	أسحار أيار
١١٠	مستقبل الشعر	٨٦	الانعطاف
١١٢	عزاء إلى ضيف الشارع	٨٧	شعر حافظ
١١٢	إلى ساكنة الدور الخامس	٨٨	نوبة الحفقان
١١٢	أيها البدر	٨٩	الأياذة

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٢٩	الصدى ونرجس	١١٣	الشدور
١٣١	اللؤم المكتسب	١١٣	الراحة
١٣٦	اليخيل	١١٦	الغرور
١٤٦	اللغات والتعبير	١٢١	نادى العجول
١٥٠	قوة الإرادة	١٢٣	علم الاحترام
١٥٧	الشجاعة والعلوى	١٢٧	جمجمة الإنسان
١٦٠	مواضيع الملاحه		